دور الأزهر في السودان

محمد سليمان

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٥

الاخراج الفنى : كامل أشعيا
تصميم الغلاف : أسامة سعيد

تقــديم

يرجع الفضل فى كتابة هـذه الدراسـة التسجيلية الى الصـديق الفاضل الدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف الاسبق فى مصر وكنت آنذاك سفيرا لبلادى لديها وكان الحديث قد دار بيننا حول الأزهر الشريف ودوره البناء فى نشر العلم والثقافة الاسلامية وتمنى الصديق العلامة أن يرى فى كل قطر عربى دراسة عن دور الأزهر وآثره فيه ٠

وللحقيقة فان للأزهر ومتخرجيه على السودان وغيره من البلاد دينا فى الأعناق ونحن فى السودان نعترف بذلك الفضل ونحفظ له ولمصر بكثير من الامتنان تلك اليد البيضاء والمأثرة الحميدة ٠ فمنه تخرج ذلك النفر الكريم من السودانيين الذين عملوا جنبا الى جنب مع اخوانهم العلماء المصريين فى نشر التعليم الدينى النظامى وشريعة الاسلام السمحاء ولسان العرب والحضارة العربية الاسلامية ووفاء وعرفانا لهؤلاء وأولئك العلماء الكرام نقدم ونهدى هذه الدراسة التسجيلية الموجزة ٠

انه من حق أبنائنا وأحفادنا ومن حق الأمة العربية والاســلامية التعرف الى هذا السجل لادراك ما قدمه أولئك النفر من العلماء وما أسدوه من جميل للسودان وللأمة العربية جمعاء ٠

جزاهم الله عن أهل السودان قاطبة كل خير ، وطيب ثرى من رحلوا منهم الى الدار الباقية ٠

الخرطوم فى فبراير ١٩٨٤ م

المؤلف

● العرب ووادى النيل

من قديم وقبل ظهور الاســـلام كان العرب على صلة بوادى النيل وكان البحر الاحمر قناة تلك الصلة فى جنوبه ميناء سواكن وفى شماله برزخ السويس ، وقد أنشأ العرب محطات تجارية هناك ومنهم من أقام وتزاوج مع السكان المحليين وبلغت هجرات العرب مداها فى عهد مملكتى معين وسبأ قبل الميلاد بنحو سبعة قرون وكذلك نشطت حركة التجارة بين العرب وأفريقيا فى زمن البطالمة والرومان وتوالت هجراتهم نحو أفريقيا من جنوب شرق الجزيرة خاصة بنى حمير فى القرنين السابقين للميلاد ٠ وقامت دولتا الحبشة واكسوم نتاجا لتلك الهجـرات وذلك التمـازج واستمر العرب المهاجرون يتجهون نحو قلب القـارة وتابع بعضـهم نهر عطبرة أحد روافد النيل الى أرض النوبة ٠

ولكن ظل طريق برزخ السويس هو الطريق الرئيسى الذى تدفقت عبره القبائل العربية نحو وادى النيل غير ان دخول العرب فى السودان قبل الاسلام لم تترتب عليه آثار عميقة اذ انحصر وجودهم أغلب الظن فى الجزء الشرقى ولم يضيفوا شيئا جديدا للحياة فى تلك المنطقة لا من الناحية الثقافية ولا من حيث تغيير الخصائص الانثروبولوجية والاثنية على السكان المحليين ٠

ولكن بعد ظهور الاسـلام وخاصـة بعد فتح مصر تدفقت القبائل العربية نحو أفريقيا وأحدثت تغييرات هامة فى وادى النيل وشـمال أفريقيا على وجه الخصوص مما أدى الى ارتباط تاريخ تلك البقاع السياسى والفكرى والاجتماعى منذ ذلك الوقت ببقية الوطن العربى ٠

كان فتح مصر يمثل احدى طلائع الهجرات الكبرى التى انحدرت

من الجزيرة العربية الى أفريقيا عبر برزخ السويس وأخذت تهبط أرض مصر الطيبة تحمل معها رسالتها الجديدة ولسانها العربى وتوالت وفادة القبائل العربية وتواترت هجراتهم لمصر بغرض تعزيز الجند أو الاستيطان وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد منع أولئك المهاجرين من الاشتغال بالزراعة وحرم عليهم تملك الأراضى وألا تعنى بغير السياسة والحكم والحرب ·

اتخذ العرب من مصر قاعدة لمزيد من الفتوحات والتوسع جنوبا وغربا بل وشمالا عبر البحر الأبيض المتوسط فكانت الجيوش تخرج منها اما لتامين حدودها وطرق تجارتها مثل تلك الحملات التى خرجت لفتح النوبة جنوبا وبرقة أو لغزو غرب أفريقيا فى عهدى عثمان بن عفان ومعاوية ·

لم تكن هذه الموجة العربية الكبرى التى جاءت مع الاسلام كسابق الموجات العربية التى خرجت تنشد أرضا جديدة وتستبدل بقعة بأخرى أو مدفوعة برداءة الاحوال أو كثافة السكان أو هربا من خطر معين ولكنها كانت موجات تحمل مفاهيم وقيما وانماطا للحياة جديدة والقرآن الكريم ينادى فيهم « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » ·

وانها لم تكن موجات جزئية متقطعة كحال الهجرات العربية الاولى التى كانت تقتصر على جزء معين من وادى النيل أو ما بين النهرين أو على أطراف العراق والشام ولذلك كان أثرها عظيما على كل ما يسمى الآن بالوطن العربى حيث أضحى وحدة كاملة — لقد قضت الموجات العربية العارمة على الحضارات السابقة الهيلينية والرومانية التى كانت تسود فى تلك المنطقة وصهرتها فى بوتقة واحدة مما أدى الى انحسار ثم اندثار اللغات اليونانية واللاتينية والآرامية والسريانية تباعا والتى كان يتكلمها السكان هناك وأصبحت اللغة العربية لغة البلاد ليومنا هذا ·

لقد دانت أجزاء كثيرة من أطراف البسيطة للعرب منذ عهد معاوية فخضعت لهم البلاد الواقعة من سواحل الاطلنطى غربا الى بلاد الصين شرقا ومن جبال القوقاز شمالا الى خط الاستواء جنوبا ودخلت الاسلام شعوب كثيرة مثل السريان والكلدان والفرس واليونان والتتار والترك والبربر وغيرهم ، ويلاحظ ان العرب كونوا آنذاك طبقة ارستقراطية ارادت ان تخضع تلك الشعوب المحكومة من أهل الذمة بتوفير أسباب العيش والراحة لها ورأى أولئك فى الحكام العرب ملوكا لا خلفاء يسيرون بهم على

نهج الاسلام بل اعادوا لهم نظـــام الحكم (١) الكسروى والقيصرى وقلب بعض خلفاء بنى أمية الحكم الى ملك عضوض كما يقول الجاحظ ٠

واستولى العباسيون على الحكم اثر ثورة عامة استجاب لها السكان وخاصة الموالى والمحرومين وكانت بالفعل ثورة ولم تكن مجرد تقويض حكم وزوال سيطرة أسرة واستبدالها بأخرى بل كانت نقطة تحول فى تاريخ الاسلام غير أن الدولة العباسية نفسها لم تغير من أحوال المسلمين والرعايا المحرومين شـــيئا يذكر فكانت بمثابة تغيير خليفة بخليفة ولهذا قامت الثورات هنا وهناك فى الامبراطورية الاســـلامية فى مصر وفى المغرب العربى وكانت ثورة الزنج والقرامطة بل بدأت الثورة منذ قيـــام الدولة العباسية والتى كان على رأس ضحاياها أبو مسلم الخراسانى القائد الذى قاد العباسيين الى النصر ٠

لقد أسهم المسلمون (٢) من غير العرب مساهمة فاقت مســـاهمة العرب فى بناء الامبراطورية الاسلامية واثراء الحضارة الاسلامية فقد نشر الأتراك أولوية الاسلام فى آسيا والهند والصين وفى أوروبا أيضا والبربر فى شمال أفريقيا والاندلس وكذلك فعـــل الفرس وغيرهم وكان الخلفاء العباسيون يستعينون بهم وخاصة الموالى منهم فى الدفاع عنهم والحفاظ على ملكهم غير أنه على أيديهم تقطعت أوصـــال الدولة الاســـلامية حيث استقل الولاة بمقاطعاتهم وأقاموا دويلات لهم ٠

الدولة الفاطمية :

على أن أقوى تلك الدويلات الاسلامية التى انسلخت من جسم الدولة العباسية وأخطرها أثرا هى الدولة الفاطمية (نسبة الى السيدة فاطمة الزهراء) فى عام ٢٩٧ هـ ــ ٥٦٧ هـ الموافق ٩٦٩ م ــ ١١٧١ م) فى المغرب على يد داعيتها ومؤسسها عبيد الله المهدى ــ جد المعز لدين الله ٠

كان قيـــام الدولة الفاطمية فى المغرب انتصارا للدعـــوة السرية القرمطية التى تأثر دعاتها منذ قيام الدولة العباسية بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية فكانوا أول الدعاة للجمهورية الاسلامية والاشتراكية الاسلامية ــ لقد كانت دعوة فكرية وفلسفية اتخذت أسلوب الخلايا السرية وتجنيد من سموهم بالمحرومين والمظلومين ووجدوا فى سلوك العديد من

---

(١) الاسلام والحضارة ــ محمد كرد على صفحة ١٩٦ ٠

(٢) التمدن الاسلامى ــ الجزء الرابع ــ صفحة ٢٠٤ هامش ــ جرجى زيدان ٠

الخلفاء العباسيين مادة للتنديد بهم واثارة الطبقات المحرومة من المسلمين ضدهم وكانت أعمال قادة الدعوة القرمطية ضد خلفاء بنى العباس لا تخلو من العمل الارهابى والاغتيالات الأمر الذى دفـــع الدعاة الثوريين على الخروج منهم والتبرؤ من أعمالهم مع التمسك بنهجهم الفلسفى فى الحكم واقامة العدالة الاجتماعية فى اطار اسلامى ويقال ان الدعـــوة الفاطمية انسلخت عن الدعوة القرمطية وكذلك نجـــد ان معظم الدعوات الفكرية الاسلامية ذات الطبيعة الفلسفية والصوفية قد نشأت وتفرعت من الدعوة القرمطية فظهرت الدعوة الشـيعية بمنهجهـا وأسلوبها وكذلك خرجت منهم الدعوة الصوفية الخ ٠٠ ودليلنا على ذلك وجود المراتب القيادية التى تكاد تكون واحدة بينهم كالامام والسيد والشيخ والمقدم وحجة الاســـلام والباب العالى الخ ٠٠

لقد لقى دعاة تلك الدعوة السرية التى كانت تعمل فى الخفاء قهرا وتنكيلا وصلبا زهاء القرنين من الزمان على يد الحكام الامويين والعباسيين وخاصة فى عهد المنصور والرشيد والمتوكل وأحمد بن طولون فى مصر (٢٥٤ هـ) ومع ذلك واصل أولئك الدعاة دعوتهم وتوجهوا شرقا وغربا الى أطراف الدولة الاسلامية فى صبر وأناة حتى كللت بالنجاح ٠

وفى عهد السلطان المعز لدين الله الخليفة الرابع دخل جوهر الصقلى عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م مصر منتزعا الحكم من الاخشيديين وكان يقود جيشا لجبا وصفه ابن هانىء الأندلسى الشاعر الشيعى الذى يضعونه فى مرتبة المتنبى فى الشرق بقوله عند خروجه من القيروان : ــ

فقد ضرعت حتى الرواسى لمـــا رأت
فكيف قلوب الانس والانس أجـزع
فلا عسكر من قبـل عسكر جوهر
تخب المطـــايا فيه عشرا وتوضـــع
تســـير الجبال الجامدات لســـيره
وتســـجد من أدنى الحفيف وتركع
اذا حل فى أرض بناها مدائنا
وان سار عن أرض ثوت وهى بلقع

واختط جوهر مدينة القاهرة لتصبح عاصمة ملكهم وخلافتهم وانتقل اليها المعز لدين الله من المغرب بعد أربع سنوات من دخول قائده جوهر

وبعد أن اكتمل بناؤها وتوطدت دعائم حكمهم سار المعز فى موكب ضخم ليس كوال أو حاكم فقط وانما كامام دينى أيضا كعهد الشيعة ونظرتهم الى الامام ٠

وكان القائد جوهر قد وضع أساس مسجد كبير فى القاهرة فى اليوم الرابع عشر من رمضان عام ٣٥٩ هـ الموافق لعام ٩٧١ م واستغرق بناؤه زهاء العامين وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى السابع من شهر رمضان ٣٦٠ هـ الموافى الثانى والعشرين من يونيو عام ٩٧١ م وهو ما عرف بالجامع الأزهر الشريف ٠ ان اهتمام الولاة المسلمين ببناء مساجد انما يعود لانها ليست أماكن للعبادة وحسب وانما للدرس والتحصيل ولأسباب سياسية واجتماعية أيضا اذ ليس ثمة فصل فى الاسلام بين السياسة والدين ، لقد كان هناك المسجد الحرام أو البيت العتيق والمسجد النبوى والمسجد الأقصى ولما خرج المسلمون فى فتوحاتهم المعروفة كتب الخليفة(١) عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى فى البصرة والى سعد ابن أبى وقاص فى الكوفة وعمرو بن العاص فى مصر بأن يبنوا مساجد يجتمع فيها المسلمون كما كتب الى أمراء اجناد الشام أن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا ٠

كانت مصر تمثل مجتمعا راقيا متمدينا صقلته التجارب وعركته الأحداث الدينية والفكر وتمازجت فيه الحضارات وقد تبوأت مصر(٢) مركزا ممتازا فى الدولة الاسلامية وكان الخلفاء المسلمون يولونها اهتمامهم الخاص فقامت حركات دينية واسعة كان مركزها جامع عمرو بن العاص وأصبحت الفسطاط لدى حقبة طويلة من الزمن قلبا للحركة الاسلامية فى مصر حيث كانت تعقد فيها حلقات الدراسة والمناقشة وما يشبه الصالونات الأدبية اليوم وكان يسهم فيها العلماء المصريون والوافدون التى يقصدونها من البلاد العربية الأخرى ٠

لم يسرع الفاطميون بدفع الأزهر الى غايته(٣) التى من أجلها أنشىء وهى الدعوة الى الفقه الشيعى ومنافسة حلقات الدراسة الكبرى التى كانت تعقد فى جامعى عمرو بن العاص وابن طولون بل اكتفوا بجعله مسجدا رسميا يقوم فى عاصمة ملكهم الجديدة وتلقى من فوق منبره خطبة الجمعة

---

(١) الازهر ــ تاريخه وتطوره ــ الأوقاف صفحة ١١٦ ٠

(٢) مصر فى فجر الاسلام ــ سيده كاشف صفحة ٣٣٧ ٠

(٣) الازهر ــ تاريخه وتطوره ــ الأوقاف صفحة ٢٠٨ ٠

التى كانت بمثابة برنامج الدولة الرسمى وقصروا دعايتهم والدعــــوة لمذهبهم وغاياتهم السياسية في مجالس خاصة ٠

وبعد أن توطدت دعائم حكمهم واستتب لهم الأمر فى مصر استأثر الأزهر برعاية الدولة حيث اهتم به الخلفاء الفاطميون اهتماما بالغا وبعد أقل من عشرين عاما وفى عهد الخليفة العزيز بالله فتحت أبواب الأزهر لدراسة العلوم الدينية والعقلية التى تقوم على أساس الفقــه الشيعى واستجلبوا له خيرة فقهاء وعلماء الدعوة الشيعية وقضاتها وأغدقوا عليهم المال والعطايا ونقلوا الى الجامع الأزهر كثيرا(١) من الكتب من مختلف الخزائن وشجعوا طلاب العلم من البلاد الاسلامية الأخرى أسوة بالمصريين للالتحاق به وكانوا بين الوقت والآخر يجرون توسعا فى مبانيه للدراسة وأروقة للطلاب ودورا لجماعة الاساتذة والفقهاء وخصصوا أموالا ثابتة للانفاق على الجامع الأزهر كما أسهم رجالات الدولة والأمراء وأهل البر فى تخصيص جزء من أموالهم لتنفق على الأزهر وعلى الطلاب ، ومنذ ذلك الوقت ونتيجة لذلك الاهتمام ارتبط اسم الأزهر برسالة العلم وأصبح منارة علمية كبرى وجامعة عظمى وظل يحافظ على رسالته هذه على مر السنين والى يومنا هذا ـ ويكفى الدولة الفاطمية فخرا انها شيدت الأزهر وأنشأت دار الحكمة ٠

لقد أضحت القاهرة بفضل الدولة الفاطمية قصبة للخلافة الاسلامية ومركزا رئيسيا لها ومهما قيل عن ذلك العهد فقد كان عهدا ازدهرت فيه العمارة والفنون وحفل بمجتمع علمى نبغ فيه أعلام وعلماء فى الفقــــه والفلسفة واللغة والرياضيات والهندسة وغيرها ، حيث لقوا الاحترام ، والمعاملة الكريمة من قبل الحكام ٠ لقد استطاع ذلك العهد تحقيق كل ذلك بفضل ما اتبعوه من سياسة داخلية اتسمت بالعدل والحــكمة فقد فرضوا البيع بالتسعيرة وراقبوا استعمال الموازين فى الأسواق وأدخلوا الحد الأدنى من الأجور للطبقات الفقيرة فى الأسواق وفى البناء ٠ وحددوا ملكية الاراضى وغيرها من التشريعات التى كــانت فى كثير من الاحيان لمصلحة المستضعفين من الناس ٠

وعندما دالت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الايوبى (٥٦٧ هـ ـ ٦٤٨ هـ الموافق ١١٧١ م ـ ١٢٥٠ م) عادت مصر للاتجاه السنى وأخذ صلاح الدين على عاتقه ازالة كل مظهر من مظاهر التشـيع ولم ير فى

---

(١) المقريزى ـ خطط ٢ ص ٢٧٣/٢٧٥ ٠

الجامع الأزهر الا منبرا للدعاية الفاطمية والدعوة الشيعيـــة فاهملت الدراسة فيه وعطل نشاطه وتواضع شأنه ولم يكن كسابق عهده وبالرغم من ذلك ظلت أبوابه مفتوحة تدرس الفقه السنى على المذاهب الأربعـة وفى آخر حكم الايوبيين كان الأزهر مسرحا لنشاط بعض اعلام الفكـر والأدب ٠

لكن الأزهر بعث من جديد فى عهد المماليك (٦٤٨ هـ ــ ٩٢٢ هـ ــ الموافق ١٢٥٠ م ــ ١٥١٧ م) والذى دام ما يقـارب الثلثمائة عـام وعادت اليه منزلته العالمية وأصبح جامعة اسلامية عظمى وفى ذلك العهد انقض المغول على بغداد فى الشرق وأحدثوا بها وبتراثها وكتبها ما هو معروف فى التاريخ وفى المغرب العربى كانت دويلات العرب تتهـاوى قلاعها وتسقط الاندلس وتركزت آمال المسلمين فى مصر وأصبحت قبلة للعلماء والفقهاء والنازحين اليهـا وكعادتها أفسحت لهم صدرها وآوتهم فى حنان ورفق وأخذ أولئك العلماء الوافدون يتعاونون مع رصفـــائهم المصريين فى حمل رسالة العلم فى الأزهر المعمور وفى معاهـــد مصر الأخرى ، وقد وصف العلامة ابن خلدون (٧٣٢ هـ ــ ٨٠٨ هـ ــ الموافق ١٣٣٢ ــ ١٤٠٦ م) مصر آنذاك وهو أحد العلماء العظام الذين وفدوا اليها وتولوا التدريس فى الأزهر بقوله : « لا أوفر(١) اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع ٠٠ » ٠

ولكن بعد تلك الحقبة الغنية من النشاط الفكرى والروحى الذى حققه الأزهر ران عليه الجمود وأصابه العقم بعـــد أن جثم الاتراك العثمانيون على صدر مصر (٩٢٢ هـ ــ ١٢٥٠ هـ الموافق ١٥١٧ م ــ ١٨٠٥ م) فقد عمدوا الى اضعاف منزلة مصر ليجعـــلوا من مدينتهم اسطنبول قبلة للعالم الاسلامى وليسهل لهم حكم المســـلمين فقبض السلطان العثمانى سليم على أكابر مصر وقضاتها ورجال المهن والفنون وبعث بهم الى اسطنبول وخرب مساجد مصر وانتزع نفائسها وكنوزها وما كانت تزخر به من كتب ومخطوطات وأرسلها لبـلاده ــ لقـد كان احتلال العثمانيين(٢) لمصر وللبلاد الاسلامية نكبة ومحنة بل وتقويضا للمدنية الاسلامية ٠

---

(١) ابن خلدون ــ المقدمة ــ صفحة ٤٨١ ٠

(٢) م٠ عبد الله عنان ــ مصر الاسلامية ٢٠٩ ٠

نجح الأتراك العثمانيون فى مهمتهم ولم تعد مصر كما كانت عليه عظيمة الجاه سامقة المكانة حيث فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية وأغلقت مدارس الفكر والعلم الأخرى ولكن بقى بصيص (١) من النور يشع من الأزهر الشريف استطاع به أن يحفظ اللغة العربية والعلوم الاسلامية وبذلك حمى هذا التراث العظيم فى وجه المتربصين به ·

ولكن الأيام دول ·

فقد دالت دولة الاتراك وولاتهم من المماليك وكذلك خرج نابليون وجيشه الغازى من مصر مذموما مدحورا بفضل تماسك المصريين ووقوفهم وراء زعماء الأزهر وتولى محمد على باشا الحكم بعد أن اختاره شيوخ الأزهر واليا على مصر ·

كان محمد على باشا وأسرته من بعده ينظرون الى الأزهر كمؤسسة مصرية مرهوبة الجانب وقد عاد عنصرا هاما فى السياسة والشئون العامة وكانوا يسعون لاضعاف نفوذه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ولكنهم كانوا يضطرون لاجراء بعض الاصلاحات فيه رضوخا لم يكن فى وسعهم تجنبها ·

وظلت مصر كما كانت دائما ابدا كعبة العلماء والقصاد يهرعون اليها ليستظلوا بظلها الوارف ولينهلوا من نبعها الفياض وكان جمال الدين الافغانى قطب الرحى منذ أن حطت رحاله مصر عام ١٨٧١ والتفت حوله مجموعة من طلابه النابهين وقامت نهضة فكرية ميمونة ثم نفى جمال الدين وغادر مصر عام ١٨٧٩ ولكن الشعلة التى أوقدها ظلت تتقد حتى قامت الثورة العرابية وكان عرابى والبارودى ومحمد عبده وعبد الله النديم وقادة الثورة ومن قامت على اكتافهم نهضة مصر من متخرجى الأزهر ·

لقد شهد الأزهر تطورا واصلاحا كبيرا منذ أواخر القرن التاسع عشر وهنا يقفز الى الذهن الامام محمد عبده فقد اقترن اسمه بما جرى للازهر من اصلاح ونهضة فى أداء رسالته ، كما ارتبط الازهر باسماء نخبة كبرى من رجالات مصر أسهمت بدور كبير فى تاريخ مصر السياسى والثقافى وفى ثورة مصر الكبرى عام ١٩١٩ ممن يعرفهم الصغير والكبير ·

---

(١) م· عبد الله عنان ـ تاريخ الجامع الازهر ١٤٦ /١٤٧ ·

وبعد الحرب العالمية الثانية تطورت الاحداث العالمية ووقفت الشعوب تطالب بحق تقرير مصيرها وقامت ثورة يوليو فى مصر عام ١٩٥٢ فشملت يدها الأزهر وأجرت فيه اصلاحات جذرية من حيث تنظيم هيئاته(١) واقامة كليات للدراسات الاسلامية والعربية والطب والعلوم والتجارة والهندسة وأصبح الأزهر يعيش بالاسلام فى واقع المجتمع ويبعث روح الدين فى شتى مجالات العمل ويحيل مكانه فى العالم كجامعة اسلامية مرموقة تأخذ بأسباب الدين والدنيا وحق للمفكر العربى الأستاذ(٢) عباس محمود العقاد ان يقر عينا فى مرقده فهو المنادى باصلاح الأزهر بقوله :

« خير ما يطلب للازهر هو أن يزداد نصيبه من الجامعة العلمية وان يزداد نصيبه من المشاركة فى الأعمال الدنيوية وان يحال بينه وبين العزلة والانقطاع .

ونحن مؤمنون بماضى الأزهر العظيم ولكننا أشد أيمانا بمستقبله لأن وظيفته فى الماضى كانت واحدة لا منازع فيها ولكنها فى المستقبل وظيفتان ينهض بهما فيكون له شأنان متعادلان فى حكمة العلم وحكمة الاسلام .

والجامع الازهر أحق مكانة بأن يتدارك عيب العصر الحاضر الذى يتمثل فى العزل بين عالم العقل وعالم الروح فيتعلم فيه الرجل وهو مؤمن ويؤمن فيه وهو عالم » .

---

(١) الأزهر تاريخه وتطوره ـ الاوقاف صفحة ٤٦٧ .

(٢) سنية قراعة ـ تاريخ الأزهر فى ألف عام ص ٣٨٩ .

● السودان وبداية انتشار الاسلام

يعرف شمال السودان في العصور الوسطى بالنوبة وكان أول من أطلق لفظة النوبة هو المؤرخ الاغريقى اراتوتينيس في القرن الثانى قبل الميلاد على المنطقة الواقعة على جانبى النيل بين أسوان ودنقلا وهو تعبير جغرافى حرف أخيرا ليصبح اسما للقبائل المستعربة هناك ٠

دخلت المسيحية الى شمال السودان منذ القرن السادس الميلادى وقامت فيه ثلاث ممالك مسيحية وهى مملكة النوباط في المنطقة الممتدة من الشلال الأول الى الشلال الثالث وعاصمتها فرس (٥٤٣ م) وجنوبها مملكة المغرة وعاصمتها دنقلا حوالى (٥٦٩ م) وامتدت هذه الدولة جنوبا حتى كبوشية الحالية والتى سماها العرب بالأبواب ولكن دولتى النوباط والمغرة اندمجتا في مملكة واحدة قوية للوقوف في وجه الزحف العربى الاسلامى من مصر وبالفعل عاشت هذه الدولة الموحدة ما يقرب من سبعمائة عام ٠ أما الدولة المسيحية الثالثة كانت تعرف بعلوة وعاصمتها سوبا (٥٨٠ م) على بعد اثنى عشر ميلا جنوب الخرطوم على الضفة الشرقية للنيل الأزرق ٠

وما ان استتب الأمر لعمرو بن العاص بعد فتح مصر عام ٦٤١ م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى سير حملة جنوبا لغزو النوبة المسيحية وفتحها باسم الاسلام ولتأمين حدود مصر الجنوبية ولكنها قوبلت بمقاومة عنيفة ولم تستطع التوغل جنوبا لأداء مهمتها ويبدو أن عمرو بن العاص شغل بمشاكل الحكم في مصر فترك النوبة وشأنهم

ولكن بعد أن تولى عبد الله بن سعد بن أبى السرح حكم مصر خلفا لعمرو ابن العاص سير جيشا لجبا لفتح النوبة عام ٦٥١ م بعد عشر سنوات من فتح مصر وتقاتل الطرفان قتالا شديدا وصفه الشاعر(١) بقوله :

لم ترعينى مثل يوم دنقله   والخيل تعدو بالدروع مثقله

واتفق الطرفان على هدنة بينهم عرفت بالبقط يفسرها المؤرخون بأنها معاهدة حسن جوار (٢) أو عدم اعتداء بتعبير حديث تحقق لمصر الاطمئنان على سلامة أراضيها من ناحية الجنوب والتبادل التجارى بين البلدين فتحصل مصر على الرقيق وسواعدهم القوية وعلى الماشية كما تحصل النوبة (السودان اليوم) على بعض الحبوب غير ان المعاهدة اشترطت على النوبة المسيحية حفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية فيها والعناية بجامع دنقلا ونظافته واسراجه وكان هذا الجامع يجتمع فيه المسلمون الذين دخلوا الاسلام هناك اما بعد محاولة عمرو بن العاص غزو النوبة أو بفضل التجار والوافدين من مصر الاسلامية ـ لقد كانت تلك الاتفاقية تحظى بموافقة البلدين ـ مصر الاسلامية والسودان المسيحى ـ لحاجة كل منهما لذلك التعاون والتبادل التجارى ولذلك ظلت سارية المفعول أكثر من ستمائة عام دون ما اخلال بنصوصها الا فى حالات قليلة ·

كذلك وفى عهد الخليفة العباسى المأمون خضع البجه فى شرق السودان للحكم الاسلامى أى بعد حوالى ثلثمائة عام من غزو ابن أبى السرح للنوبة وأصبحت بذلك الأراضى الواقعة من جنوب أسوان الى جنوب دهلك ـ مصوع جزءا من الدولة الاسلامية ·

وبالرغم من بقاء مصر دولة اسلامية فقد ظل السودان (النوبة) كما كان دولة مسيحية مئات السنين وكان ينظر الى ملوكها على قدم المساواة مع ملوك مصر وبلاد الشرق الأدنى · وقد أرسل (٣) ملك النوبة المسيحى زكريا ابنه جورج المعروف بقيرقى فى الوثائق العربية الى بغداد عام (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) فى مهمة دبلوماسية لتسوية متأخرات الجزية التى فرضتها معاهدة البقط وقد استقبله الخليفة العباسى

---

(١) ابن عبد الحكم فتوح مصر ـ نقلا عن المكتبة السودانية العربية مجموعة النصوص والوثائق للدكتور مصطفى مسعد ·

(٢) د· يوسف فضل ـ دراسات فى تاريخ السودان جـ ١ ـ ص ٢٧ ·

(٣) د· مصطفى مسعد ـ الاسلام النوبة ص ١٢١ ·

المعتصم استقبالا كريما فى بغداد واستمع له ولشكواه من ان بعضا من المسلمين فى أسوان أخذوا يشترون أراض من رعاياه المسيحيين وهى نفس الشكوى التى كان قد تقدم بها ملك النوبة للخليفة (١) المأمون عند زيارته لمصر وبالرغم من الاستقبال الحافل الذى لقيه جورج فى بغداد واجابة بعض مطالبه الا أن شكواه بخصوص شراء المسلمين لأراضى النوبة (السودان) لم تقبل مع أن معاهدة البقط لم تسمح للمسلمين بالاقامة فى أرض السودان المسيحية ٠

ثم خضعت مصر لحكم المماليك فى القرن التاسع الميلادى ولم يعد العرب كما كانوا حكاما بل رعايا ولم يكن لهم شأن فى الدولة كما كانوا (٢) وشب الصراع بينهم وبين الحكام المسلمين غير العرب فى مصر وأصبح ينظر اليهم كمتمردين وخارجين على القانون فازداد تدفق القبائل العربية تباعا لذلك على السودان الشمالى واختلطوا بالسكان المحليين وانتشر لسانهم ودينهم ٠

وكان الحكام المماليك وبالذات الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون يرسلون حملات تأديبية على النوبة (السودان الشمالى) لامتناعهم عن دفع الجزية التى فرضتها معاهدة البقط ٠

وأخيرا أمام تكاثر الهجرات العربية للنوبة (شمال السودان) وحالة الفوضى التى كانت عليها المنطقة وصراعات الملوك حول السلطة وغزوات سلاطين مصر سقطت الدولة المسيحية فى دنقلا فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى وانفتح الباب على مصراعيه للقبائل العربية فتدفقت جنوبا وأخذوا يكونون بيئاتهم ومجتمعاتهم القبلية وكما قال ابن خلدون (٣) :

«وانتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم واستوطنوها وملكوها وملأوها عبثا وفسادا وذهب ملوك النوبة الى مدافعتهم فعجزوا ثم صاروا الى مصالحتهم بالمصاهرة » ٠

هكذا سقطت دولة المغرة المسيحية فى دنقلا وبقيت دولة (علوة

---

(١) المسعودى – مروج الذهب – نقلا عن مصطفى مسعد المكتبة السودانية ص ٥٣ ٠

(٢) د٠ مصطفى مسعد – امتداد الاسلام والعروبة ٠

(٣) ابن خلدون – العبر وديوان المبتدأ والخبر نقلا عن المكتبة السودانية العربية مجموعة النصوص ص ٢٨٠ – د٠ مصطفى مسعد ٠

المسيحية فى سوبا تنتظر مصيرها المحتوم والقبائل العربية تتجمع وتتوحد بعد فترة زمنية تقرب من القرنين وتقيم تحالفا مع أسرة سودانية حاكمة وتسقط الدولة المسيحية على يد ذلك التحالف عام ١٥٠٤ م ٠

كان قيام الدولة المسيحية فى السودان ايذانا ببدء تقدم سياسى وثقافى بعد ما أصاب السودان من ضعف وتدهور بعد سقوط دولة مروى فى منتصف القرن الرابع للميلاد ٠

لقد امتدت فترة العهد المسيحى فى السودان ما يقرب من الألف عام مما أثر تأثيرا مباشرا سياسيا وثقافيا وروحيا وساعد فى تكييف الحضارة المميزة للسودان حيث كانت الطقوس الدينية تؤدى فى الكنائس باللغة اليونانية قبل الفتح الاسلامى ثم باللغة القبطية وأخيرا باللغة النوبية نفسها فقد ترجم اليها الكتاب المقدس نفسه » ٠

اضحى للسودان المسيحى اسم كبير فى الشرق الأدنى وكان ملوكه يعاملون على قدم المساواة مع حكام مصر وبيزنطة والبلاد الأخرى فى تلك المنطقة ٠

وكانت للسودان علاقة طيبة بمصر الاسلامية الا فى فترات بسيطة وقد قويت العلاقة بينه وبين الدولة الفاطمية فى مصر بصفة خاصة وقد أرسل القائد جوهر الصقلى عقب فتح مصر رسوله عبد الله بن أحمد بن سليم الاسوانى برسالة ودية لملك النوبة قيرقى (جورج) كان مما جاء فيها دعوته له لاعتناقه الاسلام ٠

كما أكثر الفاطميون من استجلاب السودانيين وتجنيدهم فى صفوف الجيش الفاطمى خاصة فى عهد الخليفة المستنصر ، وقد كانت أمه سودانية ويروى أنهم بلغوا الخمسين ألفا وأصبحوا قوة كبرى فى مصر مما اضطر صلاح الدين الأيوبى أن يحاربهم ويقضى عليهم ليقيم دولة الأيوبيين ٠

لقد كان السودان أول بلد زنجى غرست فيه بذور المسيحية وقامت فيه دولة مسيحية وشهد السودان قيام دولة عربية اسلامية عرفت بسلطنة سنار أو سلطنة الفونج نسبة الى الاسرة السودانية الحاكمة ثم تبعتها دولة دارفور ومملكة تقلى فى كردفان وكلها انضوت مؤخرا بعد فتح محمد على باشا للسودان لتكون سودان اليوم فى الجزء الشمالى الشرقى لأفريقيا دولة عربية أفريقية ذات سيادة كما قامت دول اسلامية

فى أفريقيا الغربية وانتشر الاسلام من البحر الأحمر الى بحيرة تشاد ولم يبق فى أفريقيا دولة مسيحية غير الحبشة .

ومن الطريف أن معظم القبائل العربية التى دخلت السودان مازالت تحتفظ بأسمائها العربية الى اليوم مثل كنانة وسليم وفزاره وجهينه ورفاعة ونائل وبنى هلبه وهلال وجزام والضبابينه (محرفة من ذبيان) (١) وغيرها .

---

(١) عبد الله عبد الرحمن – العربية فى السودان طبعة بيروت .

● نواة التعليم الدينى المنتظم

كفلت اتفاقية البقط التى أشرنا اليها آنفا والتى عقدها عبد الله ابن سعد بن أبى السرح حاكم مصر آنذاك مع الدولة النوبية المسيحية • كفلت للمسلمين حرية ممارسة شعائرهم الدينية فى تلك الدولة المسيحية فقد جاء فيها بالنص •

« وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم (يقصد دنقلا عاصمة دولة النوبة المسيحية) ولا تمنعوا منه مصليا ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه الى أن ينصرف عنه وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته » ••

كان ذلك اول اشارة تاريخية الى مسجد دنقلا العتيق الذى كان قائما قبل غزو ابن أبى السرح لأرض النوبة (السودان الشمالى) ربما بناه المسلمون الذين تخلفوا هناك بعد حملة عمرو بن العاص التى شنها بعد عامين من توليه حكم مصر (٢٠ هـ ـ ٦٤١ م) أو التجار أو الجنود أو الوافدون اليها من مصر •

لم تكن القبائل العربية الوافدة تهتم بنشر الاسلام ربما لانشغالها بمشاكل الرعى فى وطنها الجديد وجهلها بأصوله خاصة بعد مصاهرتها للسكان المحليين الا فى حدود ضيقة حيث عكف بعض الرواد المسلمين ينشرون العقيدة الاسلامية فى بساطتها وسماحتها واتسع نشاط المبشرين الاسلاميين بعد سقوط الدولة المسيحية فى الشمال كما ذكرنا آنفا وانفتح الطريق لكثير من العلماء المسلمين من مصر والحجاز

واليمن والمغرب للاقامة في السودان حيث أخذوا يدرسون للناس قواعد الاسلام وكان مسجد دنقلا بمثابة جامع عمرو بن العاص فى مصر آنذاك يؤمه ويصلى ويجاور فيه مسلمو تلك المنطقة .

لقد بقيت دولة علوه المسيحية فى سوبا وحدها تقاوم النفوذ العربى الاسلامى الذى كان يحيط بها حتى سقطت فى غام ١٥٠٤ وقامت دولة سنار كما ذكرنا سابقا .

لقد صاغت دولة سنار ــ أو ما تسمى أيضا بسلطنة الفونج ــ اساس السودان العربى الافريقى الذى تزاوجت فيه الحضارة النوبية والفرعونية والزنجية لتصب فى رافد الحضارة الاسلامية التى ازدهرت فى السودان بفضل العلماء الوافدين اليه من البلاد العربية لا سيما مصر وبفضل العلماء السودانيين الذين تخرجوا فى الازهر وأتباعهم وتلاميذهم ويمكننا اذا ان نقول ان انتشار الاسلام فى السودان تم على مرحلتين احداهما تلقائية وبواسطة طلائع المهاجرين والأخرى منظمة وعلى أسس علمية عن طريق الازهر أساسا .

أخذت الحياة الدينية الاسلامية تأخذ طابعها العلمى المنتظم فى عهد الشيخ عجيب بن الشيخ عبد الله جماع احد مؤسسى دولة سنار لقد ارسى ذلك العاهل الذى جلس على كرسى الحكم مدة طويلة (٩٧٠ ــ ١٠١٩ هـ / ١٥٦٣ ــ ١٦١٠ م) أسس الحياة الدينية فى السودان حيث بنى المساجد ودور العلم فى انحاء البلاد وفى عهده الطويل اقبل كثير من العلماء المسلمين الى البلاد حيث لقوا من التكريم والقبول ما هم به حريون وهو الذى بنى رواقا فى المدينة المنورة (١) لايواء السودانيين وآخر فى مصر لطلاب العلم السودانيين فى الازهر الشريف .

أقبل السودانيون على الدراسة والعلم فى شغف ونهم وكانوا يهاجرون من شيخ الى شيخ فى طلب المزيد منه ثم يولون وجههم شطر الأزهر الشريف بالذات حيث صدق عليهم القول المأثور بأن للمسلمين قبلتين دينية وهى الكعبة الشريفة وعلمية وهى الأزهر الشريف ، كانوا يسافرون الى الأزهر وهم يحفظون القرآن وعلى دراية بعلوم اللغة والفقه .

---

(١) محمد محيى الدين ــ مشيخة العبدلاب ــ ص ٢٦٢ .
محمد ضيف الله ــ الطبقات ــ ص ١١٧ نسخة ابراهيم صديق .

لقد ترك لنا أحد العلماء السودانيين وهو الشيخ عمار بن عبد الحفيظ وصفا لرحلته الى مصر والحجاز كعبتي العلم والدين أنقله بنصه :

« كان سفرنا من سنار لطلب العلم بالأزهر وللحج فى يوم الجمعة بعد العصر خامس رمضان سنة سبعة وسبعين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ولم ندخل مصر الا فى أول شهر صفر فى سنة ثمان وسبعين وجلسنا بالازهر الى شوال ثم سافرنا الى الحج وحججنا حجة الاسلام فى تلك السنة أى سنة ثمان وسبعين وفى شهر صفر سنة تسع وسبعين جلسنا بالازهر بعد عودتنا من الحج ومكثنا بقية صفر والربيعين والجمادين ورجب وشعبان ورمضان ثم سافرنا للحج أى حج التطوع فى شهر شوال مع الحجيج المصرى وحججنا فى سنة تسع وسبعين ثم جلسنا بمكة مجاورين بيت الله الحرام ثم سافرنا الى حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فى شهر المحرم سنة ثمانين وجلسنا فى المدينة ماشاء الله ان نجلس ثم رجعنا الى مكة شرفها الله مجاورين بيت الله الحرام الى أن حضرنا مولد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام بمكة ودخلنا فيه وصرنا ان شاء الله من الآمنين ثم سافرنا من مكة يوم سابع عشر من ربيع الاول الى جدة ومنها الى مصر بالسلامة فى البحر فى شهر رمضان من سنة ثمانين والف ثم ادركتنا سنة وأحد وثمانين بمصر وسافرنامنها الى البلد وكان حجنا حجة الاسلام سنة ثمان وسبعين وحجة التطوع سنة تسع وسبعين وكان يوم عرفة يوم جمعة والحمد لله رب العالمين ٠

ويقول عنه المؤرخ السودانى محمد ضيف الله المتوفى عام ١٢٢٤هـ ـ ١٨٠٩ م ضمن ما قال :

« ... ولد بسنار وسافر الى مصر والحجاز لطلب العلم والحج قرأ فيها العلوم الفقهية والنقلية والعقلية وعلم النحو واللغة والأصول والمنطق والتصوف وساير الفنون يقرأ الكتاب ختمة ختمة وتحصل على أكثر الشروح فاحضر معه رجلين أو ثلاثة كتب ٠٠٠ وعكف على تدريس مواطنيه » ٠

هكذا كان السودانيون يسافرون الى الأزهر غير عابئين بمشاق السفر ووعثائه وطوله وعنائه فقد كانت الرحلة من سنار الى مصر تستغرق آنذاك خمسة شهور يتعرض المسافرون فيها للمخاطر والأهوال

التى كانت تتمثل فى غارات النهب والسلب ومن جراء الحروبات القبلية العنيفة التى شهدتها البلاد فى آخر عهد دولة سنار .

وكما ترك لنا الشيخ عمار بن عبد الحفيظ وصفا لرحلته الى الازهر عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م كذلك سجل الشيخ محمد المبارك عبد الله شيخ علماء السودان رحلته الى الازهر عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م أى بعد مائتين وخمسة وستين عاما من رحلة الشيخ عمار - ويلاحظ أن السفر للازهر كان املا عظيما وهدفا كبيرا لدى طالبى العلم على بعد الزمان مع اختلاف فى الظروف والمعوقات .

يقول الشيخ محمد المبارك عبد الله :

« ويتتابع الزمن أياما وأسابيع وشهورا ، واسمع عن الازهر الشريف ، واعلم علو شأنه فى جامعات العالم واصالته فى التعليم الدينى وأن ما سواه رافد من روافده وتبع له فى ذلك ، وانه منتهى مقاصد العلماء يفدون اليه من كل فج عميق ، وغاية غايات طلاب العالم الاسلامى يهرعون اليه من كل حدب وصوب ، وانه كما قال شوقى فى علياته :

واخشع مليا واقض حق أئمة — طلعوا به زهرا وما جوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة — وأعز سلطانا وأفخر مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم — حرم الأمان وكان ظلهم الذرا
من كل بحر فى الشريعة زاخر — ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

★ ★ ★

حتى ظننا الشافعى ومالكا — وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا

فارغب مع الزمن فى السفر الى مصر للالتحاق بالازهر طلبا للعلم على أعلى مستوى ، واذكر مفتش مصلحة المعارف المصرى ، الذى كان يمر فى زيه الأزهرى الفاخر بالخلاوى يتعرف نظمها وعدد طلابها ونتائجها ليقوم بتقويمها ويكتب عنها تقريرا يقدمه للمسئولين فى مصلحة المعارف تمهيدا لاعانة فقهائها كما أخبرنا بذلك الفكى جذلان مسرورا عندما مر بخلوتنا وقدمنى اليه الفكى فتناول لوحى ونظر خطى فاعجبه وأخذ يسألنى وأجيب فيستحسن أجوبتى كيف كان وقورا حسن الهندام رفيع المقام جليل الشأن يقوم الناس على اختلاف مكاناتهم اجلالا له ليتلقونه بالتكريم والتبجيل فى كاكولته الأزهرية الخضراء وعمامته ناصعة البياض على طربوشه الاحمر القانى .

ويجيء الشيخ حمد ادريس من اهالى جزيرة توتى وكان قد سافر الى الأزهر وحصل على أهلية الغرباء ومعه مؤلفه فى العروض الذى سماه (التذكرة التوتية) فيحدثنا عن التعليم فى الازهر وغزارة علم علمائه وعبقرياتهم وقدراتهم الفائقة على كشف الشبهات وحل المشكلات وتوضيح المعضلات ، وعن يسر الالتحاق بالازهر وعن رواق السنارية (داخلية السودانيين) ونزلهم هناك ويجيء بعض السودانيين من الازهر غير الشيخ حمد الشيخ ادريس يحملون مختلف الشهادات الازهرية على تفاوتهم فى التحصيل واختلاف مراتبهم فى الملكات العلمية فتفتح لبعض منهم أبواب وظائف الحكومة فى القضاء والتدريس وتكون لهم المكانة الاجتماعية المرموقة فيزيد كل ذلك من رغبتى ، غير أن رغبتى كلما قويت تصطدم بصخرة صلبة أقوى منها ، هى توقع عدم موافقة والدى على سفرى وخوفى من أن يكون والدى كما يحب العلم يحب اقامتى بجانبه وأن تكون اقامتى بجانبه أحب اليه من العلم فآسف لذلك كثيرا ، واعانى منه كثيرا .

ويختلف الليل والنهار وننتقل من السنة الدراسية الثانية الى السنة الدراسية الثالثة وتشجعنى الاولية فى نتيجة الامتحان ، وتتدخل دوافع أخرى تحملنى على السفر غير مجرد الرغبة فيه ، فهذا زميلى وأحد منافسى فى السنة الدراسية يسافر الى الازهر ويلتحق به شاردا من غير اذن والده ، وهاهم أولاء جماعة من طلاب كلية غردون يأبقون لطلب العلم بمصر ويساعدهم على هذا الاباق أعضاء جمعية اللواء الأبيض وكم ند غيرهم من الطلاب كما يند البعير والتحق بالأزهر متحملا مشقة السفر مع المواشى فى عربات الحيوانات بقطارات البضاعة فحسن حاله وصار له شأن فالغاية شريفة والسفر فى طاعة ، والله سبحانه وتعالى يقول : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، وربما يكون صاحبى قد افتى نفسه من هنا بجواز ذلك .

ولكن اليس فى المعهد من العلم ما يكفى طلاب الفقه فى الدين ؟ والمنهج واحد والكتب المقررة هنا هى الكتب المقررة هناك ، وقد اقتبس الشيخ ابو القاسم هذا النظام من نظام الازهر بوساطة الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر الذى كان قاضيا للقضاة بالسودان كما سمعنا ذلك من مشايخنا اكثر من مرة فى معرض الحديث عن نشأة المعهد والثناء

عليه ، على كل حال طلب الزيادة على العلم الواجب ان لم يكن واجبا عينيا فهو واجب كفائى أو مندوب اليه ، وقد كان الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم يرحلون طلبا لتفسير آية من كتاب الله أو رواية حديث من أحاديث رسوله الى أقاصى البلاد فضلا عن انه لا يمكن أن يكون المعهد ـ كالازهر وهذه الكتب المقررة كلها أو أكثرها من تأليف علماء الازهر ، والمسألة ليست مسألة مماثلة فى المقررات والكتب ، وانما هى مسألة رجال يشرحون هـــذه الكتب ويبينون ما غمض منها ، ومشايخنا وان كانوا علمـاء كملة الا انه ما من كمال الا وعنـد الله ما هو أكمل منه ، وفوق كل ذى علم عليم ومن قصد البحر استقل السواقيا .

وهكذا تتداعى الافكار المتقابلة وتتوارد الخواطـــر والموازنات والمعادلات فى ذهنى فأعاود الحديث مع والدى بشىء من الصراحة : انى أريد أن أسافر الى مصر السنة الآتية بعد أداء الامتحان وانتهاء العـام الدراسى الحالى ان شاء الله واريد ان اسافر وانت راض عنى لا كما فعل فلان وفلان ، وما دمت سأقضى اثنتى عشرة سنة فى طلب العلم بالمعهد هنـا لأحصـل على العالمية فخير لى ان أقضى هـذه المـدة بالأزهر واحصل على العالمية من هناك .

ولكن ليس رضا والدى وحده هو كل شىء فى عدة السفر الى مصر للتعليم ، وليس كل ما قام به نحوى من اعداد وزاد يكفى لسفرى مالم يأذن السكرتير الادارى أو مكتب المخابرات فى ذلك الوقت أو دون أن احصل على تأشيرة الخروج كما يسمونها الآن . ومن لى بأن يأذن السكرتير الادارى بسفرى الى مصر للتعليم فى تلك الظروف التى نشطت فيها الحركة الوطنية ضد المستعمرين ، وتواطأت فى مصر والسودان ، واتحدت أهدافها ، وتجاوب القائمون بها ، واخذ أعضاء جمعية اللواء الابيض يهربون طلاب كلية غردون الوطنيين الى مصر لاكمال دراستهم فى المدارس الثانوية ، وجامعة القاهرة ، واعدادهم للنضال ، كما تهرب الممنوعات ، فألجأ الى الوساطة الكريمة فى هذا أيضا .

وتنتهى الوساطة الى اليوزباشى عبد الخالق حسن مأمور مركز أم درمان حينذاك ، غير أن وساطة عبد الخالق بك تزيد الأمر تعقيـدا فيما يبدو من غير قصد ، وتثير منافسة فى موضوع ســـفرى بين عبد الخالق بك ومكتب السكرتير الادارى : يسر عبد الخالق الرجـل المصرى الوطنى المسلم ، ان أسافر لاطلب العلم بالازهر الشريف ، وان يشجع مثـل هذه الهجرة الى مصر فى طلب العلم بالازهر بين طــلاب

المعهد ، كما تشجع الهجرة الى مصر طلبا للعلم فى مـــــدارس وزارة المعارف المصرية بين طلاب كلية غردون ، ويخشى مكتب السكرتير الادارى ان اذن لى أن يفتح باب السفر الى مصر لطلب العلم امام طلاب المعهد فينهالوا عليه ، وهو ما لا تريده حكومة السودان ويعتبر فى سياستها لتوهين العلاقات الثقافية بين مصر والسودان اخطر شيء ، ويسألنى كبير الموظفين فى مكتب السكرتير الادارى لماذا لا ألتحق بقسم القضـاء الشرعى فى كلية غردون أو اطلب التعيين فى المحاكم الشرعية فى الوظيفة التى تنـاسب معلوماتى ان كنت لا أريد مواصلة الدراسـة بالمعهـد ؟ ولماذا أعرض نفسى بالسفر الى مصر فى هذه الظروف للحرمان من العودة الى بلدى ، والالتحاق بوظائف الحكومة محاولا صرفى عن السفر بالترغيب تارة ، والترهيب أخـرى ، غير أنى أصر على طلب الاذن بالسـفر مهما كلفنى ، ومهما كان من نتائجه القريبة والبعيدة وأظفر بعد الليتا واللتى كما يقولون بجواز السفر المطبوع والمعد للسفر بين مصر والسودان فى تلك الأيام ، وهو ورقة واحدة بها بيان حال المسافر وأوصافه وعنوانه هنا وهناك والضامن على صفحة باللغة العربية ، وعلى الاخرى باللغة الانجليزية مقابل خمسة قروش ، ولا اذكر الآن انى فرحت منذ ولدت ووعيت الى ذلك التاريخ بشيء فرحى بالحصـول على هـذه الورقة التى تسمح لى بالسفر الى غايتى » (١) ٠

لقد حصل الشيخ محمد المبارك عبد الله على الشهادة الابتدائية النظامية فى نفس العام الذى التحق فيه بالازهر وكان يحمل شـهادة النقل من السنة الثالثة الى السنة الرابعة الابتدائية من معهد أم درمان العلمى الذى انشيء عام ١٩١٢ م على غرار الازهر كما سترى فيما بعـد .

ولعله من المفارقات الغريبة ان المواطنين وعلى رأسهم سلاطين وحكام سنار كانوا يحتفلون بالطلاب السودانيين القاصدين الازهـر ويودعونهم وداعا حارا على النقيض مما كان يجرى للطلاب بعـد ثلثمائة سنة ابان الحكم البريطانى على السودان اذ كان أولئك الطلاب يتخفون فى زى رعاة البقر الذين يرافقون الأبقار والماشية التى يصدرها أصحابها الى مصر لبيعها هناك ٠

---

(١) محمد المبارك عبد الله مذكرات وذكريات ص ٢٥ ٠

• الرواد السودانيين من متخرجى الأزهر

سلطنة سنار (١٥٠٤ ـ ١٨٢١ م) ٠

أول من وفد الى مصر من السودان للدراسة فى الازهر كما تسجله وثائق التاريخ هوالشيخ محمود احمد العركى الذىتتلمذ على الشيخين شمس الدين اللقانى وناصر الدين اللقانى فى ما بين ٩٣٥/٩٤٠هـ ـ الموافق ١٥٢٩/١٥٣٤ م وهما من شيوخ المالكية المعروفين ٠

وعندما عاد الشيخ محمود انشأ خمس عشرة مدرسة على النيل الابيض فى منطقة الكوة (أليس) على بعد ١٣٠ ميلا جنوب الخرطوم ولنا أن نعرف مبلغ الجهد والدور الكبير الذى قام به اذ لم تشتهر قبله فى البلاد مدرسة علم ولا قرآن وعدد المواطنين الذين درسوا عليه وانتشروا يحملون رسالة النور لمواطنيهم الآخرين فوق التقدير ٠

وهناك أولاد جابر الأربعة وهم ينحدرون من أسرة دينية معروفة كان عميدها العالم غلام الله بن عابد الذى وفد السودان من اليمن فى آخر القرن الخامس عشر الميلادى ٠ كان أكبرهم ابراهيم جابر وقد درس فى الأزهر على الشيخ محمد البنوقرى وغيره من أعلام المالكية فى مصر الفقه المالكى وأصول اللغة والنحو وعاد الى بلاده ويقال انه أول من درس مختصر خليل بن اسحق المالكى ورسالة ابن أبى زيد القيروانى فى السودان . ويعرف الشيخ ابراهيم بالبولاد (١) ووراء

(١) ود ضيف الله ـ الطبقات ـ نسخة ابراهيم صديق ـ ص ٦ ٠

هذا اللقب قصة اذ يقال ان رجلا أقسم أن يدخل بيته جميع ما خلقه الله فأفتاه الشيخ ابراهيم بوضع المصحف على سريره مستدلا بقوله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ولما سمع الشيخ البنوقرى تلك الفتوى قال لتلميذه ابراهيم « انت بولاد البر » ويقصد بالبر السودان كما كان بعضهم يسميه . ويروى أن الشيخ ابراهيم قد تعلم عليه اربعون رجلا اصبحوا اقطابا فى الدين واعتبر ذلك العدد المناسب الذى يتولاه الشيخ بالتدريس والباقون من الطلاب يتولى تدريسهم حواريون للشيخ ويعرف الواحد منهم بالعريف كما هو معروف فى مصر واصبح ذلك تقليدا سار عليه العلماء اذ يتخرج على يد كل منهم اربعون قطبا فى الدين وهم بدورهم ينتشرون فى أنحاء البلاد ليعلموا الناس أيضا .

وكان من تلاميذ الشيخ ابراهيم أخوه عبد الرحمن (١) وقد ذهب أيضا لمصر للاستزادة من العلم فى الأزهر على الشيخ البنوفرى وقد اظهر نبوغا كأخيه ابراهيم وعاد الى بلاده وتولى التدريس بعد وفاة اخيه ابراهيم وانشأ ثلاثة مساجد احدها فى دار الشايقية والثانى فى كورتى والثالث فى الدفار وكان يدرس فى كل مسجد أربعة شهور مقتديا فى ذلك التنقل بين المساجد بأستاذه الشيخ محمد البنوفرى الذى كان يمضى اربعة شهور فى القاهرة ومثلها فى الاسكندرية ثم الاربعة شهور الاخيرة يقضيها فى الحجاز حيث اعتاد ان يحج سنويا الى بيت الله الحرام ويروى ان الشيخ عبد الرحمن بن جابر درس مختصر خليل المالكى فى تلك المساجد أربعين مرة .

ومن الشيوخ العلماء الذين درسوا على الشيخ عبد الرحمن ابن جابر الشيخ عبد الله بن دفع (٢) الله العركى الذى عاد الى اقليم الجزيرة فى أواسط السودان واخذ ينشر العلم هناك فى تلك الربوع مترسما خطى استاذه فى العلم وتولى مهمة القضاء أيضا . وقد ذهب الشيخ عبد الله العركى الى الحجاز وتولى تدريس الناس هناك فى مقام الامام مالك ثم عاد الى بلاده رغم الحاح أهالى مكة للبقاء معهم ومواصلة تدريسه لهم .

وممن درسوا على الشيخ عبد الرحمن بن جابر الشيخ

---

(١) محمد ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ١١١ .
(٢) محمد ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ١١٢ .

ومنظومته فى التوحيد على الشيخ على الأجهورى وعاد لينشر العلم بدوره فى ربوع البلاد .

وهناك كثيرون غيرهم أمثال القاضى على ود (١) عشيب الذى درس على الشيخ البنوفرى وولى القضاء والشيخ محمد جمال الدين (٢) المعروف بحلاوى والذى كانت له دراية بالفتاوى والأحكام نوردهم على سبيل المثال لا الحصر ..

عاد أولئك الرواد الى بلادهم بعد ان اخذوا عن اساتذتهم فى الازهر ما تيسر لهم من العلم وما أهلهم للتدريس والفتيا فى بلادهم عادوا وكل منهم يحمل اجازة علمية من استاذه او اساتذته كما جرت العاده آنذاك ولم تكن تلك الاجازات تمنح الا لنوابغ الطلاب فما كان الأستاذ يقبل لنفسه ان يمنح اجازة لغير مستحقيها اذ يرتبط اسمه بهذه الاجازة مثل ما جاء فى الاجازة التى منحها العلامة ابن الملقن للعـالم القلقشندى اذ تنتهى الاجازة بقوله :

« .. واجزت له مع ذلك أن يروى عنى من التآليف ومنها جامع الجوامع أعانه الله على أكماله وكذا شرح « صـحيح الامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى » ومنها « البدر المنير فى تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى الشرح الكبير للامام ابى القاسم الرافعى » وبه تكتمل معرفة الفقيه ويصير محدثا فقيها .

واجزت له مع ذلك ماجاز لى وعنى روايته بشرطه عند أهله زاده الله واياى من فضله ومنها الكتب الستة ــ البخارى ومسلم وابو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والمسانيد ــ مسند أحمد ومسند الشافعى وغير ذلك » .

لقد أصـبح أولئـك الرواد والوافدون من علماء الازهر المصريين وتلامذتهم نواة المجتمع ودعامته فأقبل عليهم الطلاب من كل فج وأخذوا يتلقـون العلم عليهم ونسـوق مثالا لذلك ما ذكره مؤرخ دولة سـنار (١٥٠٤ ــ ١٨٢١م) عن أحد العلمـاء السودانيين الذين علا صيتهم وهو الشيخ الزين بن صغيرون وكان قد درس على والده الشيخ صغيرون الذى درس على الشيخ محمد البنوفرى فى الازهر فقد قيل أن الشيخ

---

(١) محمد ضيف الله ــ الطبقات ــ ص ١١٤ .

(٢) محمد ضيف الله ــ الطبقات ــ ص ٧١ .

عن هذه الاسرة ـ اسرة اولاد جابر ـ يقول احـــد المؤرخين السودانيين (١) (انهم وضعوا أساسا قويا للحياة الاسلامية فى السودان فقـد نشروا العلوم الاســلامية ووضـعوا منهجا لدراسـتها وتضاعف مجهودهم على مدى السنين عن طريق الطلاب الذين تلقوا العلم عليهم ثم نشروه بدورهم فى أرجاء مختلفة من السودان كما قام هؤلاء الطلاب بتطوير رسالة مشايخهم اولاد جابر وذلك بادخال مواد اسلامية فى خلاويهم ومساجدهم كما اتصفوا بالاجتهاد الذى تدل عليه الكتب المختلفة التى ألفوها فى شتى ضروب المعرفة الاسلامية ٠

ولم يكن نشاط تلاميذ أولاد جابر يقتصر على التدريس أو التمرس بالتصوف بل مارسوا أيضا القضاء الشرعي وبرهنوا من خلال ممارسته على تمكنهم من العلم والمـام واسـع عميق به ومثلمـا كان لأولاد جابر منهج فى التعليم فقد كان لهم ايضا منهج فى التربية تمثل فى نظرتهـم للحياة ومفاهيمهم للحياة الدينية » .

ومن العلماء السودانيين الذين واصلوا تعليمهم فى الأزهر الشيخ عبد الرحمن (٢) حمدتو الخطيب الذى تتلمذ على الشيخ البنوفرى وعاد للسودان ليقوم بتدريس مواطنيه وقد تخرج على يديه عدد من العلمـاء نذكر منهم الشيخ عبد الله الاغبش عميد أسرة الغبش والذى قدم أهله من دنقلا فى الشمال ولد فى بربر جنوبها وأنشأ فيها مسجدا مازالت شعلة العلم تتقد فيه منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا ٠

من تلاميذ الشيخ عبـد الرحمن حمدتو الشـيخ ابراهيم (٣) بن عبـودى المعـروف بالفرضى وسمى كذلك لطول باعه فى علم الفرائض الذى الف فيه حاشية عرفت بالفرضية وظل عاكفا على تدريس الناس فى منطقة النيل الابيض الى أن توفاه الله .

ومن الذين تخرجوا فى الأزهر كذلك فى تلك الفترة من الزمن الشيخ عبد الرحمن (٤) بن ابراهيم بن أبى ملاح الكنانى والد الشيخ خوجلى العالم المشهور فى توتى ٠ درس الشيخ عبـــد الرحمن مختصر خليل

---

(١) د٠ سر الختم عثمان = أولاد جابر ـ ص ٢٥ ٠

(٢) محمد ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ١١٥ ٠

(٣) محمد ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ٢٢ ٠

(٤) محمد ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ١١٥ ٠

ومنظومته في التوحيد على الشيخ على الأجهوري وعاد لينشر العلم بدوره في ربوع البلاد .

وهناك كثيرون غيرهم أمثال القاضي على ود (١) عشيب الذى درس على الشيخ البنوفرى وولى القضاء والشيخ محمد جمال الدين (٢) المعروف بحلاوى والذى كانت له دراية بالفتاوى والأحكام نوردهم على سبيل المثال لا الحصر ..

عاد اولئك الرواد الى بلادهم بعد أن اخذوا عن اساتذتهم فى الازهر ما تيسر لهم من العلم وما أهلهم للتدريس والفتيا فى بلادهم عادوا وكل منهم يحمل اجازة علمية من استاذه أو اساتذته كما جرت العادة آنذاك ولم تكن تلك الاجازات تمنح الا لنوابغ الطلاب فما كان الأستاذ يقبل لنفسه ان يمنح اجازة لغير مستحقيها اذ يرتبط اسمه بهذه الاجازة مثل ما جاء فى الاجازة التى منحها العلامة ابن الملقن للعالم القلقشندى اذ تنتهى الاجازة بقوله :

« .. واجزت له مع ذلك أن يروى عنى من التآليف ومنها جامع الجوامع أعانه الله على أكماله وكذا شرح « صحيح الامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى » ومنها « البدر المنير فى تخريج الأحاديث والآثار الواقعة فى الشرح الكبير للامام ابى القاسم الرافعى » وبه تكتمل معرفة الفقيه ويصير محدثا فقيها .

واجزت له مع ذلك ماجاز لى وعنى روايته بشرطه عند أهله زاده الله واياى من فضله ومنها الكتب الستة ـ البخارى ومسلم وابو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والمسانيد ـ مسند أحمد ومسند الشافعى وغير ذلك » .

لقد أصبح أولئك الرواد والوافدون من علماء الازهر المصريين وتلامذتهم نواة المجتمع ودعامته فأقبل عليهم الطلاب من كل فج وأخذوا يتلقون العلم عليهم ونسوق مثالا لذلك ما ذكره مؤرخ دولة سنار (١٥٠٤ ـ ١٨٢١م) عن أحد العلماء السودانيين الذين علا صيتهم وهو الشيخ الزين بن صغيرون وكان قد درس على والده الشيخ صغيرون الذى درس على الشيخ محمد البنوفرى فى الازهر فقد قيل أن الشيخ

---

(١) محمد ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ١١٤ .

(٢) محمد ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ٧١ .

الزين « جلس فى حلقة أبيه من بعده وشدت اليه الرحال وضربت آباط الابل وطـال عمره واشتهر ذكره وأخذت عليه الأبناء والآباء والأحفـاد والاجداد وبلغ تدريسه خمسين ختمة وبلغت حلقته ألف طالب وتلامذته أصبحوا شيوخ الاسلام » ·

وهـكذا نشأت المدن والقرى حول أولئك العلماء وتولت بيـوت دينية بعينها تأسيس المدارس وايواء الطلاب ونشر العلم فى البـلاد منذ ذلك العهد الى يومنا هذا كمدارس الشايقية فى دنقلا والغبش فى بربر والمجاذيب فى الدامر وقوز العلم فى شندى وتوتى والعليفـون وكترانج وابى حراز وام ضوابان وكثير غيرها .

• العلماء المصريون الأزهريون في السودان

ولم يكن العلماء السودانيون الذين تخرجوا في الازهر هم وحدهم حملة رسالته في السودان في ذلك العهد فقد كان هناك نفر من علمائه المصريين الذين اسهموا بقسط وافر في نشر العلم في ربوع بلادنا نذكر منهم :

الشيخ محمد (١) المصرى القناوى :

واصله من مدينة ادفو بصعيد مصر درس على الشيخين سالم السنهورى مفتى المالكية ويوسف الزرقانى والد الشيخ عبد الباقى شارح مختصر خليل وكان زميلا للشيخ ابى الحسن الشاذلى المصرى – قدم السودان فى منتصف القرن العاشر الهجرى الموافق القرن السادس عشر الميلادى وتنقل بين مدنه واستقر فى مدينة بربر القديمة المعروفة آنذاك بالمخيرف بعد أن طاب له المقام فيها لجودة مناخها .

كان دافع الشيخ المصرى القناوى لزيارة السودان والاقامة فيه نشر العلم بين أبنائه ابتغاء وجه الله واحتسابا فبادر بتشييد مسجد بالمخيرف واقبل عليه طلاب العلم من كل صوب وحدب كما ترك مؤلفات فى الشرح على عقيدة السنوسى الصغرى وكتاب العشماوية ورسالة فى البسملة وشرح على الشمسية فى علم المنطق وتبوأ منصب القضاء

(١) محمد ضيف الله – الطبقات – ص ٣٦ .

الذى باشره بنزاهة وعدل وعرف بالتقوى والورع وكان قد عمر طويلا ٠

وقد تتلمذ عليه الشيخ محمد (١) بن عيسى بن صالح المعروف بسوار الذهب الذى قرأ عليه العقائد والمنطق وعلوم القرآن واصبح فيما بعد من اجل علماء السودان .

وممن تخرج على الشيخ المصرى القناوى حفيده الشيخ محمد المضوى (٢) ولحفيده هذا مؤلفات منها شرح القصيدة المنظومة فى فن التوحيد وهو شرح مطول يكثر فيه من النقل عن كتب لها مكانتها فى فن التوحيد ويعتبر هذا الشرح أوسع من شرح الشيخ سعد الدين التفتازانى على العقائد النسفية ٠ ومن تلاميذ الشيخ محمد المضوى الشيخ خوجلى عبد الرحمن ابو الجاز المعروف بأزرق توتى ومنهم أيضا أولاد سوار الذهب الذين قدموا اليه من دنقلا وهم بدورهم رجعوا لمنطقتهم يدرسون العلم هناك ٠

ثم انتقل الشيخ المضوى الى شندى جنوبا واقام فيها هناك يدرس للناس الفقه المالكى ــ المختصر وشرح المختصر والرسالة وعلوم اللغة والبلاغة والتفسير والحديث وقد بلغ عدد طلبته ثلثمائة طالب ٠

الشيخ محمد بن على (٣) بن قرم الكيمانى :

وهو من العلماء المصريين ــ قدم البلاد حوالى ٩٧٠ هـ / ١٥٦٣ وزار اريجى فى منطقة الجزيرة وسنار ثم بربر حيث استقر بها ويقال انه اول من درس المذهب الشافعى فى السودان وقد تتلمذ عليه كثيرون منهم الشيخ عبد الله العركى والقاضى دشين الملقب بقاضى العدالة والشيخ ابراهيم الفرضى ٠

وكان الشيخ بن قرم قد درس فى مصر على الشيخ محمد الخطيب الشربينى احد اعلام الشافعية هناك .

---

(١) محمد ضيف الله ــ الطبقات ــ ص ١٦٥ ٠
(٢) محمد ضيف الله ــ الطبقات ــ ص ١٣٢ ٠
(٣) محمد ضيف الله ــ الطبقات ــ ص ١٦٩ ٠

● مؤلفات العلماء السودانيين

لقد عنى بعض أولئك العلماء السودانيين بتأليف الكتب الدينية (١) واللغوية اسوة برصفائهم فى مصر والشام والمغرب والبلاد الاسلامية الأخرى نذكر منهم الشيخ ارباب بن عون المعروف بارباب العقائد المتوفى عام ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م مؤلف كتاب الجواهر فى أركان الايمان ووصف الكتاب بانه كان ذا نفع عظيم وقد علمت ان نسخة منه موجودة اليوم فى المغرب ضمن مخطوطات أخرى كثيرة وارباب هذا درس الفقه على الشيخ الزين بن صغيرون الذى درس على أبيه صغيرون وهو الذى قرأ على اخواله أولاد جابر وعلى الشيخ محمد البنوفرى فى مصر كما درس ارباب العقائد علم التوحيد على الشيخ على ودبرى المتوفى عام ١٠٧٣ هـ / ١٦٦٣ م / والذى درس على الشيخ صغيرون الذى ورد اسمه آنفا ٠

كذلك ألف الشيخ ابراهيم بن عبودى المعروف بالفرضى كتابا فى علم الفرائض وقد درس على الشيخ عبد الرحمن بن حمدتو الذى درس فى الأزهر على الشيخ البنوفرى ـ غير ان أولئك العلماء أكثروا من شرح بعض الكتب التى كانوا يدرسونها طلابهم لتناسب المستوى العلمى أو المرحلى لطلابهم اذ ان بعض الشروح المجلوبة كانت معقدة العبارة وغريبة المبنى فبسطوها بما يلائم بيئتهم وفى ذلك ما يدل على طول باعهم فى المعرفة واصالة التفكير التربوى ومدى انضباطهم فى سبيل البحث العلمى ٠

ومن بعض تصانيف أولئك الفقهاء والتى جاء ذكرها فى كتاب الطبقات :

---

(١) راجع يوسف فضل ـ دراسات فى تاريخ السودان جـ ١ ص ١١١ الى ١١٨ ٠

- شرح مختصر خليل لكل من ضيف الله بن علي ومختار بن جوده الله ·
- حاشية على مختصر خليل لمحمد بن عبد الله بن حمد الاغبش ·
- حاشية على خليل لحموده التنفار ·
- رسالة فى الفتاوى والاحكام لعبد الرحمن بن جابر ·
- شرح الرسالة لمكى النحوى الرباطابى ·

وفى علم التوحيد :

- شرح أم البراهين الصغرى والكبرى لعلى بن برى وقيل انها سار بذكرتها الركبان ·

- الحاشية على أم البراهين ـ الوسطى والصغرى والعمدة لمحمد بن المضوى كما كتب شرحا فى بدء الأمالى لسراج الدين بن عثمان الاوشى وتوجد نسخة من هذا المخطوط فى مكتبة المعهد العلمى بام درمان كانت ملكا للعالم السودانى الشيخ يوسف الطريفى المعروف بأبى شرا المتوفى عام ١٢١٧ هـ / ١٨٠٣ م / وقد وصف صاحب الطبقات هذه الشروح والحواشى بقوله « شأنها ان تكتب بماء الذهب » ·

وقد شرح عقيدة رسالة ابن أبى زيد القيروانى كل من محمد المضوى ومكى النحوى الرباطابى ·

كما شرح مقدمة السنوسى كل من على حموده الكاهلى (شرحان) وغانم أبو شمال وعبد القادر البكاى ومحمد بن عدلان الشايقى (شرحان) ومكى النحوى الرباطابى الذى شرحها فى أربعين كراسا ونظم عبد الله ابن دفع الله العركى نظمين على كبرى السنوسية ومقدمات الأشعرية ·

وألف مالك بن عبد الرحمن ولد حمدتو ثلاث حواشى على الميراث كبرى ووسطى وصغرى وقد وصفت بانهن كن فى غاية الابداع ·

وقد قام بشرح الجزرية وهى منظومة مشهورة فى التجويد لشمس الدين أبى الخير بن ياسين الدمشقى القرشى الجزرى من أئمة الحفاظ وعلماء القراءات المتوفى عام ٨٣٣هـ / ١٤٢٩ م كل من المضوى محمد المضوى وعبد الرحمن بن حمد الأغبش ·

وحقيقة لقد سار أولئك العلماء على نهج أساتذتهم ومن سبقوهم من فقهاء المسلمين في الاكثار من الشروح منذ سقوط بغداد في أيدى المغول وعهد المماليك (١٢٥٠ م ـ ١٥١٧ م) والحكم العثماني في مصر (١٥١٧ هـ ـ ١٨٠٥ م) اذ نجد العلماء أكثروا من الشروح بل وشرح الشروح واختصارها والتحشية عليها وتهميشها والتنبيه على مافات واضعيها .

لقد عاش العلماء السودانيون في فترة كان الحكم العثماني يجثم على صدر الأمة الاسلامية وبالذات مصر وهو عصر يمكن ان نسميه دون مبالغة عصر انحطاط وضعف الثقافة الاسلامية واللغة العربية واذا رجعنا الى علماء الأزهر في تلك الفترة لا نجد منهم من بلغ شهرة وشأوا بالمقارنة مع مجموع العلماء الافذاذ الذين قادوا الفكر الاسلامي فى مختلف فروعه كالبوصيرى والنويرى والسبكي والعمرى وابن عقيل والبلقيني وابن خلدون والقلقشندى والمقريزى والحافظ بن حجر والعيني والسخاوى والسيوطي وابن اياس وغيرهم .

لقد كانت مكتبات أولئك العلماء تمتلىء بالنفيس من الكتب اقتنوها وجمعوها بعد جهد ومشقة ودفعوا ثمنا لها كل ما كانوا يملكون وكان جلها ان لم تكن كلها تأتيهم من مصر على يد الراحلين في طلب العلم فكانت مصر مهبط كثير من هؤلاء الطلبة كما كانت مصدرا هاما للهجرات العربية وللرواد من العلماء الذين وضعوا الأساس الثقافي لهذه البلاد ومن طريف ما يروى ان الفقيه حامد اللين بن سليمان باع عبدا ليشترى بثمنه كتاب الشبراخيتي على خليل وكان أول من أحضر شرح عبد الباقي على خليل الى السودان وعبد الباقي هذا هو عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي والذى كان يدرس في الأزهر وشهد له بالتبحر في العلم والفقه وقد توفى عام ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٨ م .

ويروى أيضا عن الشيخ عبد الرحمن بن صالح بن بان النقا المتوفى عام ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م اهتمامه باقتناء الكتب المتنوعة ولما فرغ من نسخ كل ما عثر عليه فى داخل البلاد أرسل الى مصر والحجاز ليشترى غيرها فتكونت له مكتبة ذات ست خزانات كما أحضر العالم عمار بن عبد الحفيظ الخطيب الذى ورد ذكره في غير هذا المكان رحلين أو ثلاثة من الكتب من مصر وكذلك كان للشيخ ابراهيم العودى خطيب سنار ومدرسها على مذهب الشافعي خزانة كتب موقوفة على طلبة العلم .

لقد ترك لنا أحد فقهاء السودان دراســة عن سير لمائتين وسبعين من علماء السودان فى ذلك العهد (٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م الى ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م) تدل على سعة معارفهم ونبوغهم فى مختلف صنوف العلم ويقول مثلا عن الشيخ حجازى انه كان طبيبا ماهرا كأنه ابن سينا فى حكمته وشاعرا حاذقا كأنه كعب بن زهير فى شعره وله معرفة بالخط الحسن كأنه ابن مقله فى خطه ويعرف جميع الأقلام العبرانية والسريانية واليونانية وله معرفة بصناعة الكيمياء كأنه جابر فى صنعته وهذا الوصف وان كانت تشوبه المبالغة الا انه يلقى ضوءا على نبوغ الشيخ حجازى كما يدل على ان قراء ذلك العهد يعرفون شيئا عن الاعلام الذين ورد ذكرهم ٠

وهذا المعجم الذى نحن بصدده هو كتاب الطبقات فى خصـــوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان للفقيه العالم محمـد ضيف الله بن محمد الجعلى الفضلى المولود بحلفاية الملوك عام ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م والمتوفى عام ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م وهو يتحدث عن سيرة علماء وفقهاء ومتصوفة ذلك العصر والمنهل الثقافى والفكرى الذى استقوا منه وهو بطبيعة الحال سجل هام لحياة السودانيين الدينية والثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية فى دولة سنار ٠

ويستهل المؤلف معجمه بمقدمة جاء فيها « ٠٠٠ وبعد فقد سألنى جماعة من الاخوان أفاض الله علينا وعليهم سحائب الاحسان واسكننا واياهم أعلى فراديس الجنان بحرمة سيد ولد عدنان فاجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة فى السنة وبعد الالهـام مع انـه لم يكن لأسلافنـا وأسلافهم وضع فى هذا الشأن الا أن اخبارهم متواترة عند الخاص والعام منها ما بلغ حد التواتر عندهم فاحببت ان أذكر ما تواتر واشتهر من تلك الأخبار وذلك لأن الخبر المتواتر عند الأصوليين من الأقسام اليقينية التى تفيد العلم بالشىء وتنفى عنه الشك والظن والوهم وقد اقتديت بجماعة من المحدثين والفقهاء والمؤرخين فانهم ألفوا فى التاريخ والمناقب كالامام عبد الغافر الفارسى فى تاريخ نيسابور والجلال السيوطى فى كتـاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة والحافظ بن حجر ألف كتابا فى علماء عصره سماه الدرر الكامنة فى أعيان المايه الثامنة والشيخ أحمد المقرى الف كتابا سماه نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب وأخبار وزيرها لسان الدين بن الخطيب ٠٠٠ » ٠

اهتم علماء المسلمين بعد ان وقعت البلاد الاسلامية فى يد التتار بالتأليف وخاصة كتب التاريخ وتراجم الاعلام كما هو معروف وربما أخذ

مقدمته تلك من كتاب حسن المحاضرة للسيوطى الذى يذكر انه اقتدى فى كتابه ببعض من تقدمه ممن ترجموا لأنفسهم ومنهم عبد الغافر الفارسى فى تاريخ نيسابور وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ولسان الدين الخطيب فى تاريخ غرناطة والحافظ تقى الدين الفارسى فى تاريخ مكة وابن حجر العسقلانى فى قضاة مصر وأبو شامة فى الروضتين ـ ولكن يبدو انه تأثر فى منهج الكتاب بالشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه : ـ (الطبقات الكبرى) ٠

ونحن لا نود ان نقف موقف الناقد للكتاب فهو على أى حال سفر عظيم عن فترة هامة فى تاريخ الثقافة والفكر فى السودان ٠ لا غنى لأى باحث عنه ٠ لقد وضعه مؤلفه باللغة السودانية الدارجة وحققه العالم السودانى دكتور يوسف فضل وعلق عليه وكتب عنه مقدمة مستفيضة لا غنى لأى باحث فى تاريخ تلك الحقبة عنها ٠

كان ملوك سنار وسلاطينها يعظمون العلماء ويجلونهم وينزلونهم مكانة كبرى فى نفوسهم وقد كان أولئك الملوك على قدر كبير من العلم والفقه ويروى ان الملك السنارى (١) ناصر بن بادى الذى حكم من ١١٧٥ هـ / ١٧٦٩ م الى ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م قتل وكان المصحف على يمينه والموطأ كتاب الامام مالك على شماله ٠

كان سلاطين سنار يسيرون وفدا محملا بالمال والذهب الى الأزهر بعد الحصاد من كل عام كما كان بعضهم يراسل علماء الأزهر ويجزل لهم العطاء كما سجل ذلك العالم الأزهرى عمر (٢) المغربى فى قصيدة بعث بها الى السلطان بادى بن رباط المعروف بأبى دقن ـ والذى حكم ثمانية وثلاثين عاما ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٥ م يمدحه ويشكره على هداياه له نذكر منها فى وصف سنار عاصمة الملك ٠

أيا راكبـا يسرى على متن ضـامر	**الى صـاحب العلياء والجود والبر**
ويطوى اليه شقة البعد والنوى	**ويقتحم الاوعـار فى المهمـة القفـر**
وينهض من مصر وشاطىء نيلهـا	**وازهرهـا المعمور بالعـلم والذكر**
لك الخير ان وافيت سنارقف بها	**وقوف محب وانتهز فرصة الدهر**
والق عصا التسيار في سوحأنسها	**تجد كل ما تهوى النفوس من الأمر**

---

(١) نعوم شقير ـ جغرافية وتاريخ السودان ـ طبعة دار الثقافة بيروت ـ ص ٣٩٨ ٠

(٢) أحمد بن الحاج ـ كاتب الشونة ـ ص ١١ تحقيق الشاطر بصيلى ٠

وعنـــدما دالت دولة سنار بكى عليهـــا شاعرها ونعاها بقصـــيدة تماثل مرثية أبي البقاء صالح الرندى المشهورة منذ سقوط مدن الأندلس والتى جاء فيها :

لكل شيء اذا ما تم نقصـــــان — فلا يغر بطيب العيش انســـان
هى الأمور كما شاهدتهـــا دول — من سره زمن ســـاءته أزمـــان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن — وأين فيهـــم أكاليـــل وتيجـــان
وأين ما شـــاده شـــداد من أرم — وأين ما ساسه فى الفرس ساسان
وأيـن ما حـــازه قارون من ذهب — وأين عـــاد وشـــــداد وقحطان
أتى على الكل أمـــر لا مـــرد لـــه — حتى قضوا وكأن القوم ما كانوا
دهـــا الجزيرة أمر لا عزاء لـــه — هـــوى له أحـــد وانهـــد ثهـــلان
تبكى الحنيفة البيضـــاء مـــن — أسف كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاســـــلام خاليـــة — قـــد أقفرت ولهـــا بالكفر عمران
بالأمس كانـــوا ملوكا فى منـــازلهم — واليوم هم فى بـــلاد الكفر عبدان

قال الشاعر السودانى يبكى(١) على سنار ويصف مشاعر اللوعة والحزن ويرسل أحكاما عامة وزوال النعم وان الدنيا دار رحيل لا تدوم ، الى غير ذلك .

أرى لدهـــرى اقبـــــالا وادبارا — فكل حـــين يرى للمرء أخبـــــارا
يوما يريه من الافراح اكملهـــــا — يوما يريه من الاحزان اكـــــدارا
والدهر هذا فلا تبقى محاســـــنه — فيبدل المـــرء احســـــانا واضرارا
فاين عاد وشـــداد وما ملكـــــوا — وأين فرعـــون والنمروذ اذجـــارا
وأين كسرى وأين الوالى وقيصرهم — وأين جمعهم فقد صـــــار أخبـــارا
آه على زمـــن قـــد كان فى طرب — كنا بجمع من الأحبـــــاب ســـمارا
آه على بلد الخيرات منشئنا — أعنى بذلك دار الفونج ســـــنارا
فاوحشت بعد ذاك الانس وارتحلت — عنهـــا الاماثل بدوانا وحضـــــارا
وصار عمرانهـــا المحسون مندرسا — يصيح يوم به فى الميل حرارا
وابدلت دولة الاعـــزاز من همـــج — كانهـــم لم يكونـــوا الدهر أوزارا
فمنصب الملك والتعظيـــم منطمس — كانه لم ينل بالفخر اظهـــــــارا
بالمجد كانـــوا كرام الناس منقبة — بســـيرة كاملى الفضـــل أحرارا
فلو رأيت بهـــم ما حل من ضرر — أجـــريت دمعـــك اعـــلانا واسرارا

(١) أحمد بن الحاج كاتب الشونة ـ مخطوطة ـ تحقيق الشاطر بوصيلى ، ص ٨١ .

أئمة الدين يا هذا لهم شرف ففيهم حكموا الرصاص والنارا
تبكي مساجد أهل الله خامدة ترمي عليهم دموع الحزن اقطارا
فابشروا بفضل الله سادتنا فقد حظيتم بخير النزل اجهارا
تبكي محاكمهم تبكي مدارسهم تبكي مفاخرهم تنبيك أخبارا

ويلاحظ ضعف القصيدة والاخطاء بها فهى من نوع الشعر الضعيف الذى سبق نهضة الشعر فى العالم العربى ولكنها تمتاز بحرارة عاطفتها وهى قطع من أرقى أشعار ذلك العهد .

وبعد أكثر من مائة عام بكى سنار الشاعر السودانى محمد سعيد العباس بقوله :

زرت سنار والجوانح أسرى زفرات هدت قوى الصبر هدا
أن محا الدهر حسنها فنقد كانت مرادا للمعتفين وخلدا
لهف نفسى فقدت يا قبلة الخير كهولا حموا حماك ومردا
كنت مثوى للاكرمين وميدانا رخيا لخيلهم ومندى
ورحابا قد زينت وقبابا زان ارجاءها مليك مفدى
عاش ما عاش وهو جد أبى لم يعفر لغير مولاه خدا
ارخصوا فى هواك كل عزيز فتباروا فى الحرب والسلم جندا
فرقتهم يد الزمان اناديد وما خلفوا لعمرى ندا
قد شقينا من بعدكم فوردنا يا كرام الحمى من الهول وردا

● الأزهر والقضاء والفتاوى في سلطنة سنار

انتظم القضاء والفصل فى النزاعات المدنية والأحوال الشخصية عند قيام سلطنة سنار · فى عهد الشيخ عجيب (١٥٦٣ ـ ١٦١٠ م) زعيم القبائل العربية المتحدة آنذاك وأحد حكام دولة سنار على أسس الشريعة الاسلامية أسوة بما كان يجرى فى مصر والشام والحجاز فى القرن العاشر الهجرى هذا مع تطبيق لبعض القوانين العرفية ·

كان هناك قاض يحكم فى (١) جميع المنازعات بالقانون السماوى ـ القرآن الكريم ولم يكن موزعا الى مدنى وجنائى وأحوال شخصية وكان يشترط على القاضى أن يكون : ـ

حافظا للقرآن الكريم عارفا لأحكامه مجودا له وان يكون قد ألم بطرف غير يسير من علم الكلام أى التوحيد · وان يكون متبحرا فى علوم الفقه وان تكون دراسته على مذهب الامام مالك اذ هو السائد فى السودان منذئذ والى اليوم · كما يشترط بعضهم ان يكون القاضى سالكا للطريق الصوفى وهو فى الأغلب الطريقة القادرية ومشتقاتها · كما يتعين عليه ان يعرف اللغة العربية ويلم بها الماما كافيا ·

وقد يلجأ أحد المتقاضين اذا لم يكن راضيا عن حكم صدر عليه من أحد القضاة لقاض آخر ويعرض عليه قضيته فيما يشبه الاستئناف وهنا قد تجرى مناظرات ومحاورات بين القضاة يكون الحكم فيها على ما استقر عليه رأى القضاة وفى بعض الأحيان يحتكمون الى علماء مصر فيما نشأ

---

(١) محمد محيى الدين ـ مشيخة العبدلاب ص ٤٢٨ ·

بينهم من خلاف (١) . كما حدث فى قضية حكم فيها القاضى السودانى عبد الرحمن بن مشيخ النويرى متخرج الازهر على امرأة تبرعت بثلث مالها قاصدة بذلك ضرر زوجها حكم برد المبلغ ونازعه فقهاء زمانه وكاتبوا الشيخ الاجهورى العالم المالكى فى الازهر فاجابهم بصحة الحكم مراعاة للعرف والمصلحة .

كذلك عندما دخل التبغ فى مصر وبدأ انتشاره فى العالم العربى ومنه السودان فى نهاية القرن العاشر الهجرى اختلف العلماء السودانيون فيما بينهم فمنهم من اباحه ومنهم من حرمه تماما مثل ما جرى فى مصر وقد وقف الشيخ (٢) ادريس الارباب العالم والمتصوف السودانى معارضا الشيخ عليا الاجهورى الذى أفتى باباحته ومؤيدا الشيخ ابراهيم اللقانى صاحب جوهرة التوحيد فى حرمته . أما العالم السودانى الشيخ عبد الوهاب رجل أم سنبل ، فقد عارض الشيخ ادريس وأيد الشيخ اللقانى محرما استعمال التبغ وجرت مناظرات عدة بين العالمين السودانيين فى ذلك ثم أرسل الشيخ ادريس رسالة خاصة الى الشيخ الاجهورى حملها رسول منه هو حمد ولد أبى عقرب يعارضه فيها ويورد له حجته فى تحريم التبغ وكانت بينهما مراسلات ودية من قبل . كذلك كانت هناك صلات ورسائل مودة بين بعض علماء السودان وعلماء الأزهر منها ما كان بين الشيخ محمد الخراشى امام المالكية فى مصر وأول امام للأزهر وبين العالم السودانى الشيخ ابراهيم صغيرون وقد أهدى العالم السودانى جارية الى الشيخ الخراشى الذى بعث له بدوره نسخة من شرحه الكبير على مختصر خليل فى مذهب مالك الذى عم النفع به شرقا وغربا كما يقول المؤرخ السودانى محمد ضيف الله المتوفى عام ١٢٢٤ هـ / ١٨١٣ م .

وتوجد الآن بعض الأحكام التى صدرت فى العهد السنارى (١٥٠٥ هـ ـ ١٨٢١ م) فى نزاعات حول الأرض ما زال أصحابها يحتفظون بها ويتخذونها وثائق لاثبات ملكيتهم للأرض وقد قدمت للقضاء السودانى فى الحكم البريطانى وسجلت لهم أراضيهم بمقتضى تلك الأحكام وهى تدل على ما كان عليه القضاة آنذاك من نزاهة وفهم للمسائل العلمية (٣) .

---

(١) ود ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ١١٤ .

(٢) ود ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ٩ .

(٣) القاضى يوسف ابراهيم النور ـ صفحة من تاريخ السودان القديم ـ القضاء ـ مقال فى مجلة الفجر السودانية مارس ١٩٣٧ .

كان جل الفقهاء الذين تولوا القضاء فى سلطنة سنار من متخرجى الأزهر أو ممن درسوا على متخرجيه ولم تكن تصرف لهم مرتبات بل السلاطين يجزلونهم العطاء ويمنحونهم أراض يعيشون منها وكانت أموالهم معفاة من الضرائب والعشور ، كما لم يكن الحاكم يتدخل فى أحكام القضاة لأنها كانت قائمة على القانون السماوى ولم يكن أحد يخالفها وبالذات فيما يختص بالأحوال الشخصية اذ يعتبر فسوقا وخروجا عن حكم الشريعة ٠

● سلطنة دارفور والأزهر

أسس هذه السلطنة الاسلامية السلطان سليمان صولون عام ١٦٤٠ وبلغت النهضة الاسلامية فى هذه السلطنة أوجها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى وقد اتسعت رقعتها حتى شملت اقليم دارفور بأكمله وجزءا من كردفان ثم سقطت فى فترة الحكم التركى على السودان عام ١٨٧٤ وأصبحت جزءا منه ٠

لقد عمل سلاطين دارفور منذ عهد مؤسس الدولة الاسلامية سليمان صولون (١٦٤٠) م على تشجيع العلماء من مصر وسنار وتونس ودعوتهم للاقامة فى بلادهم لتدريس أهلها أصول الدين الاسلامى. كما شجعوا مواطنيهم للسفر الى مصر طلبا للعلم فى الأزهر وأقاموا لهم رواقا هو رواق دارفور ٠ وكانوا هم أنفسهم يمثلون القدوة الحسنة لمواطنيهم فلم يكن يتولى الحـــكم أى منهم الا اذا كان حافظا للقرآن ٠ لقد أقام أولئك السلاطين مساجد عديدة يكاد يكون فى كل بلدة مسجد أو أكثر يتعلم فيه الصبية الكتابة والقرآن ومع كل مسجد زوايا ومساكن للمجاورين لدراسة العلوم الشرعية ومن أشهر تلك المؤسسات العلمية خلاوى طره وشويا والطينة وجوامع الفاشر وكوبى وجديد السيل وكان فقهاء تلك الدور العلمية من الأئمة المتفقهين فى الاسلام ٠

وكان السلاطين يهبون العلماء اقطاعات من الارض يعيشون عليها من ريعها هم وتلاميذهم ٠

لقد انتقل الى دارفور من سنار علماء سودانيون تخرجوا فى الازهر أو درسوا على علماء من متخرجى الازهر أفادت منهم البلاد هناك ولقوا

حظوة عنــد سلاطينها نذكر منهم الشيخ أبا سرور الفضلى الجعلى وكذلك الشيخ أبا زيد بن الشيخ عبد القادر والشيخ حسن ولد عمارى ·

ومن أشهر ملوك دارفور الذين شجعوا هجرة العلماء لدارفور هو السلطان عبد الرحمن الرشيد (١٢٠١ ـ ١٢١٥ هـ / ١٧٨٧ ـ ١٨٠١ م) لما عرف عنه من علمه وحبه للعلماء وقد وفد عليه عدد كبير نذكر منهم من قبيل المثال الشيخ عمر التونسى الذى تخرج فى الأزهر وكان قد قدم سنار أولا ثم دارفور حيث لقى هناك رهطا من علماء دارفور اجتمعوا به وأكرموه منهم الفقيه مالك الذى وصفه محمد بن التونسى بأنه أعظم الوزراء العرب ومنهم الفقيه محمد كريتم والشريف سرور بن أبى الجود وعبد الكريم بن الفقيه حسن ود عووضه وأحزابهم ومنهم الشيخ عز الدين الجامعى وحسين ود عمارى وهما من متخرجى الأزهــر والشيخ غرباوى وغيرهم ·

لقد قويت شوكة الاسلام فى دارفور فى عهد هذا السلطان وأولئك العلماء ويقال ان السلطان بنى تسعة وتسعين جامعا فى سلطنته اضحت موئلا لطلاب العلم والدرس ·

وبعد وفاة السلطان عبد الرحمن الرشيد خلفه ابنه محمد الفضل (١٢١٥ ـ ١٢٥٤ هـ / ١٨٠١ ـ ١٨٣٩ م) الذى تولى تربيته وتعليمه هو وأولاده الفقيه الأزهرى حسين ولد عمارى ولعله من المناسب ان ننقل نص الكتاب (١) الذى رد به السلطان محمد الفضل على رسالة محمد على باشا عام ١٨٣٠ يدعوه فيها للتسليم والخضوع له أسوة ببقية بلاد السودان وقد حرر ذلك الكتاب العالم الازهرى ود عمارى :

« الحمد لله الذى حكم بين عباده بالحق قطعا سبحانه يجزى كل نفس بما تسعى واليه المعاد والرجعى وهو حسبى وكفى · من حضرة من أمن الله به البلاد وجعل ملكه مسموعا من كل أحد وصيره فى قلوب الأعداء نارا تستعر وحجرا يتوقد وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرد ومن ضل وتعند وهو شاب صغير السن ولو صار كهلا لخضعت له الانس والجن وقد اشتهر بالكرم والجود وحال بعوارضه انجم السعود وان قامت الهيجاء بنفسه يجود ويصل الى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود ·

---

(١) نعوم شقير ـ جغرافية وتاريخ السودان طبعة دار الثقافة بيروت ص ٤٦٣ ·

هو مولانا السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن الرشيد أعزه الله ٠

« الى حضرة الكوكب العالى والنير المتلالى بهجة الانام وقدوة الليالى صاحب العز والافتخار اخينا العزيز محمد على باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات يمنه وكرمه ٠

أما بعد :

فسلام عليكم ورحمته وبركاته لديكم قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله الى رضوانه وفهمنا خطابكم وبمقتضى جوابكم وكل كلمة من المرقوم يستحق جوابها المفهوم ولكن يكفى من ذلك كلمة الحى القيوم حيث قال (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) ٠٠ «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا» ٠

انكم طالبون دولتنا وانقيادنا لكم هل بلغكم اننـــا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا أو غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية ؟ أورد لك دليل من الله تجد فيه ملكك أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليك أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك ربا قويا ولنا رب صغير الحمد لله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ندين بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

نؤدى الفرائض ونترك المحرمات ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر والذى لم يصل نأمره بالصلاة والذى لم يزك نأخذ منه الزكاة ونضعها فى بيت المال ولا ندخرها ونرد الأمانات الى أهلها ونعطى كل ذى حق حقه حتى دانت لنا القبائل العظام ومن أتى دولتنا يرجع مكرما باذن الله تعالى ولو اشتدت به الريح فى يوم عاصف ألم تر الى قوله صلعم « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى » أما علمت ان دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهولة وشبان يسرعون الى الهيجاء بكرة وعشية ٠ أما علمت ان عندنا العباد والزهاد والاقطاب والأولياء والصـــالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هـــذا هم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رمادا ويرجع الملك الى أهله ويكفى من بعد ذلك والله يكفى شر الظالمين » ٠

استلم محمد على باشا الرسالة ولم يشأ ان يجازف ويرسل قواته لغزو دارفور وانتهى بذلك الأمر الى ان سقطت عام ١٨٧٤ على يد القائد

السوداني الزبير رحمة باشا وضمها للسودان في عهد الحكم التركي والكتاب يصور في ايجاز ما كان عليه الحال والحكم في دارفور من عمل بالسنة والكتاب وأثر العلماء والفقهاء في المجتمع الديني بطبيعة الحال ٠

وفي عهد السلطان محمد الفضل أتى العلامة الأزهري محمد عمر التونسي الى دارفور عـــام ١٨٠٣ ليلحـق بوالده هنـــاك والذى ورد ذكره آنفا عندما هم والده بالعودة الى بلاده تونس طلب منه السلطان محمد الفضل ان يبقى معه في دارفور بدلا عن أبيه ـ أقام محمد التونسي في دارفور سبع سنوات ألف بعد عودته لمصر كتاب « تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » والكتاب يعتبر مرجعا هاما عن دارفور في تلك الفترة ٠ تحدث عن القبائل هناك وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقدات بعضهم وكل ما يتصل بمجتمعاتهم وبالرغم مما حواه الكتاب من مبالغات وتحامل على المرأة السودانية الأمر الذى لفت النظر اليه المؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم الا انه أسدى خدمة جليلة للعلماء ومؤرخي ذلك العهد في دارفور ٠

يعتبر محمد عمر التونسي أحد رجال الازهر الذين نهضت الصحافة والتأليف الأدبي على أكتافهم وهو المحقق اللغوي والعارف بالمصطلحات العلمية ومؤلف الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية ٠

كما زار السودان العالم التونسي الأزهري محمد زين الدين(١)وأمضى فيه عشر سنوات كان يعلم النـــاس ويبصرهم بشئون دينهم وتنقل في ربوع البلاد في سنار وكردفان ودارفور وودای وكتب مخطوطا عن رحلاته هذه ولكنها فقدت ونشرت ترجمة لها باللغـــة التركية في اسطنبول عـــام ١٨٤٦ وصف فيها حضارتي دارفور ووداى وأنظمتها الاجتماعية وأورد بيانات مفصلة عن حياة القبائل هناك وتقاليدها وتجارتها ويعتبر ذلك الكتاب تتمة قيمة لكتاب التونسي عن دارفور الذى سماه تشحيذ الأذهان ٠

كان زين الدين هذا على اتصـــال وثيق بالعلماء الأوربيين الذين أقاموا في مصر في عهد محمد على باشا ٠

لقد كانت في دارفور فعلا نهضة دينية مرموقة وكانت البنت هناك تتعلم قبل الولد بل كان شرطا أساسيا للزواج ان يكون الزوجان متعلمين ولذلك ليس غريبا ان نجد معظم نساء دارفور من كبار السن يعرفن

(١) الاصول التاريخية للعلاقات العربية ص ٢٦٣ ــ د٠ كمال زكريا قاسم ــ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ معهد البحوث ٠

القراءة والكتابة ويحفظن القرآن وكان مما أخذ على القـــائد السودانى الزبير باشا رحمة أنه حارب وقضى على دولة تدين بالاسلام وتتمســـك به ويحرص نساؤها على حفظ القرآن كرجالهم بالفعل ·

كان فى دارفور انذاك علماء وفقهاء معروفون قبل سقوطها على يد الزبير رحمة عام ١٨٧٤ وكانوا يحظون بمكانة رفيعة فى بلادهم وقـد وصفهم الزبير رحمة بأنهم اجل علماء دارفور وكان قد كتب اليهم راجيا التوسط بينه وبين السلطان ابراهيم حتى لا تقع حرب بينهما حقنا لدماء المسلمين ، هؤلاء الفقهاء هم سلامة بن الفقيه مالك وفخر الدين بن الفقيه محمد سالم والفقيه سالم والامام الضو بن الامام المصرى امام السلطان ابراهيم ولعلهم من متخرجى الازهر كما علمت · وعندما ضمت دارفور للسودان فى عهد الحكم التركى كما ذكرنا توافد اليها وعمل فيها فقهاء ازهريون نذكر منهم العلامة أحمد محمد الجداوى الذى عمل فى القضاء ثم نقل مدرسا لمدرسة الخرطوم وكذلك العالم السودانى محمد البدوى متخرج الازهر وتلميذ الشيخ عليش والذى أصبح فيما بعد شيخ علماء السودان والشيخ عبد القادر اسماعيل الكردفانى وقد ورد ذكرهم آنفا ·

كانت لدارفور محاكم شرعية تحكم على كتاب الله وسنة رســـوله صلعم ويقضى فيها علماء على مذهب الامام مالك وكان جل قضاتها من (١) متخرجى الازهر كما كانت لها محاكم عرفية تقوم على أساس العـــرف السائد آنذاك ·

وليس من السهل تحديد العلماء النابهين الذين لعبوا دورا محمودا فى نهضة دارفور فى العصر الحديث الا أننا نذكر منهم الشريف محمـــد الامين كرار والشيخ محمد أحمد آدم تيراب والاستاذ محمد أحمد ســـوار والشيخ يعقوب حسين ·

---

(١) القاضى حسين سيد أحمد المفتى ــ تطور القضاء فى السودان ص ٥٩ ·

الحكم التركى فى السودان
(١٨٢١ ـ ١٨٨٥ م)

نادى الشعب المصرى بمحمد على باشا واليا على مصر بعد ثورة كبرى فى مايو عام ١٨٠٥ م الموافق لصفر سنة ١٢٢٠ هـ وما ان دانت له البلاد حتى بدأ يصفى الثورة شيئا فشيئا ويقهر زعماءها وينفيهم ويسخر طاقات الشعب المصرى تحقيقا لمصالحه ومآربه . وقد تورط فى حروبات لا حاجة له بها وكان أشدها ايلاما تلك التى شنها على الثورة الوهابية فى الجزيرة العربية والتى كانت تنادى بيقظة اسلامية وبتحرير الشعوب من الاستبداد التركى .

ـ كان الرجل يرنو ببصره الى السودان كغيره من حكام مصر منذ فجر التاريخ فأرسل وفدا الى ملك سنار (السودان) كمظهر لمودته ومدخلا لصداقته وملتمسا منه طرد المماليك الذين لجأوا الى السودان بعد أن فتك بهم فى مصر وقطع أوصالهم ولكن مهمة الوفد الحقيقية كانت التعرف على أحوال البلاد وتقدير ما يلزمه من جيوش وعتاد لغزوها وعاد الوفد موضحا حالة الانقسام والتفكك الذى اعترى جسم دولة سنار وقد شجعه احد زعماء القبائل السودانية وهو الملك نصر الدين زعيم قبيلة الميرفاب فدعاه لغزو البلاد .

وكانت الفرصة مواتية لمحمد على لتحقيق مخططه فبادر باستصدار فتوى تسوغ له فتح السودان حيث ان الشرع الاسلامى لا يبيح حرب المسلم للمسلم كما اتصل بسلطان تركيا ولعله السلطان محمود الثانى يستأذنه فى فتح السودان وضمه الى مصر وقد وافق السلطان على أن يكون الفتح باسم خليفة المسلمين .

وأسرع محمد على باشا فسير في عام ١٨٢٠ جيشا بقيادة ابنه اسماعيل باشا لفتح البلاد واظهارا لحسن نواياه واستغلالا لعواطف الناس الدينية أرسل مع الجيش الفاتح ثلاثة من نخبة علماء الأزهر يمثلون المذاهب الدينية وهم القاضي محمد الاسيوطى الحنفى والسيد أحمد البقلى الشافعي والشيخ أحمد السلاوى المغربى المالكى وأوصاهم أن يحثوا أهل البلاد على الاستسلام والطاعة دون حرب بحجة انهم مسلمون وان الخضوع لجلالة السلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب دينى وقد سهل هؤلاء له مهمته لما عرف عن أهل السودان من نزعة دينية مضافا الى حالة التفكك القبلى الذى كانت تعانيه البلاد وأصبح السودان أو كما كان يعرف بسنار خاضعا لمحمد على وعرف ذلك العهد الذى امتد من عام ١٨٢١ الى ١٨٨٥ م بالحكم التركى .

(١) نعوم شقير – جغرافية وتاريخ السودان – ص ٤٩٤ .

● اغتيال اسماعيل باشا (١)

بعد أن تم لاسماعيل باشا بن محمد على باشا فتح السودان قفل راجعا الى مصر وفى طريقه اليها وعند مدينة شندى « ترك الباشا خيالته فى مكان يبعد نحو عشرين ميلا جنوب شندى وأسرع مع نفر من مماليكه الخواص وطبيبه وخازنداره الى شندى وما ان دخلها حتى استدعى الملكين نمر والمساعد ملكى قبيلة الجعليين وطلب منهما أن يحضروا من النقـود والماشية والجمال ما يقدر بنحو عشرين ألف جنيه حسب بعض الروايات أو على وجه العموم مبلغا تقصر مواردهم عن أدائه ٠

كان اسماعيل يرهب والده ويخافه وقد عرف من الخطابات التى بعث بها اليه ان ما وصل مصر لم يكن بالشىء المنتظر من بلاد عرفت بخيراتها الوفيرة فهو يريد أن يقدم لوالده هدايا قيمة من اقليمه الذى فتحه وان ينال الرضاء والتقدير وهو لم يسر من الملكين نمر والمساعد منذ ان قابلهما لأول مرة ولم يرض الا بتسليم الملك نمر نفسه حـين بعث هذا بابنه لمرافقته وجيشه الغازى فى طريقه لسنار ثم انه لم ينعم عليهما بسيف علامة الحلف والمعاونة ولم يأنس لهما حين غادر شنـدى جنوبا بل أخذهما فى ركابه تحت المراقبة وأوكل بحراستهما الملـك شاويش ملك الشايقية وخيالته ٠

---

(١) د٠ مكى شبيكة ــ السودان فى قرن ــ كذلك راجع محمد عبد الرحيم النداء فى دفع الافتراء ص ١٠٤ ٠

دهش نمر لهذه المطالب وابدى اعتراضه فى لغة وقوة لم يرض عنها الباشا وما كان لنمر أن يخاطب بغير هذه اللغة لأنه نشأ على أن يأمر وتعود الخضوع والطاعة مع التقدير من شعبه وما كان لملك وملك الجعليين خاصة أن يراوغ فى كلامه أو أن يتحدث بلغة الدبلوماسية وكانت لحظة حاسمة ، هذا اسماعيل يبلغ سبعة وعشرين عاما فى عنفوان شبابه وابن عزيز مصر وفاتح مملكة سنار والقاضى على حكمها وهذا نمر عاهل أولاد جعل أعز القبائل فى السودان والمنحدرة من سلالة العباس عم النبى (صلعم) ولا مجال للتحقيق فى صحة نسبتهم أو شعورهم بالتسامى والتفوق لأنهم نشأوا على هذه العقيدة ويستجيبون للمؤثرات ويتفاعلون مع الحوادث على هذه الأفكار والآراء واذا اضطرت الاقدار القاسية نمرا لأن يجلس أمام الباشا فى ذل وانكسار فان لهجة الأمر التى كان اسماعيل يخاطبه بها وثقل المطالب زادت نار الثورة المخبوءة بين الجوانح تأججا واشتعالا ومارد الباشا على اعتراض نمر بكلمة قد تحتمل مهما كان وقعها ولكنه صفع الملك على وجهه بغليونه الطويل .

طبيعى لمثل نمر وهو كما وصفناه عزة وقبيلة ان يرد الاساءة التى لحقته فى الحال وفعلا كما روى قد هم بسحب سيفه غير أن المساعد قد غمزه بيده فى رواية وتحدث معه بلغة البشاريين فى رواية أخرى بأن يرجىء الانتقام لفرصة أخرى ولو عرف اسماعيل طباع الشعب الذى أخضعه لم يرتكب هذه الغلطة ولكان مد فى عمره أياما أخرى وانقذ البلاد مما أعقبه مقتله من خراب ودمار ولكن هكذا أرادت مشيئة الخالق .

دبرت المؤامرة منذ تلك اللحظة بأن تغيرت سحنة نمر وأظهر القبول وتسليم المطلوب غدا وجهزت الدلوكه (الطبل) لتضرب احتفاء بالباشا وأسكر القوم حتى ناموا وأثناء السرور والانشراح وضع القصب الجاف حول مقام الباشا وأشعلت النار فى بهيم الليل ووقف الجعليون بسيوفهم يقضون على من يخترق النيران ويخرج الى الفضاء ويقال ان المماليك أظهروا اخلاصا لسيدهم بأن تراموا عليه فمات بالاختناق لا بالاحتراق فى ليلة ١٧ صفر ١٢٣٩ هـ (أكتوبر ١٨٢٢ م) هكذا تروى القصة بتفاصيلها وقد تختلف فى بعض أجزائها من رواة آخرين ولكنها فى جوهرها تقول بأن الأسباب هى مطالب باهظة مصحوبة باهانة بالغة وان الرد كان اغتيالا دبر وأحكم تدبيره والوثائق الرسمية لا تنير الطريق فى هذه المسألة فهى تتركنا واسماعيل قد غادر ود مدنى الى الشمال فى طريق عودته لمصر » .

وسرعان ما انتشر خبر مقتل اسماعيل باشا وتحركت البلاد في ثورة كانت تحتبس في الصدور زهاء عامين من الزمان فقد دخل اسماعيل باشا السودان فاتحا له باسم خليفة المسلمين ولم يجد مقاومة تذكر بل سارت حملة الفتح كما وصفها مؤرخ سوداني كسير السائح لاكسير الفاتح ولكن في مدى العامين ظهر الحكم على حقيقته وغلظته وكشر عن نابه ·

ولم تحتمل حاميات الحكم الجديد الهجوم عليها من قبل الثوار في كررى والحلفاية والخرطوم والعيلفون والكاملين وأخطرت المحروسة (مصر) ·

وكان محمد خسرو الدرملي والمعروف بالدفتردار في كردفان بعد ان أخضعه للحكم الجديد وهو صهر محمد على باشا زوج ابنته بازلى هاشم وتولى قيادة الجيش الفاتح بعد مقتل اسماعيل باشا وطلب منه أن يقمع الثورة الناشئة آنذاك فهب من حينه متوجها الى الأبيض يقتل ويسفك ويحرق القرى واحتمت القبائل بالجزر على النيل وتوجه شمالا فقتل أهلها ولم تسلم منه حتى بيوت الله فخربها وحرق من احتموا بها وهزم الملكين نمر والمساعد وتعقبهما حتى دخلا حدود الحبشة · وقتل في المتمة(١) من الاسرى ثلاثة ألاف اذ حاول واحد منهم تسديد ضربة له بالحربة ، أحرق المتمة وشندى وكبوشية والدامر في الشمال واستمر شهورا يجوب البلاد وشياطين الدمار والخراب تسير في ركابه ناشرا الذعر والرعب في نفوس المواطنين حيث فتك وقتل سكان الحلفايه وتوتي والعليفون ·

لقد جمع الأسرى عشرات الألاف رجالا ونساء في زرائب وجعل يدخل لهم الماء بالجداول وفيهم أبناء الملوك وذرارى الائمة الاعلام فمنهم من مات في الحبشة ومنهم من أرسل الى مصر بما فيهم عدد من نساء الملك نمر وبناته وخالاته وعماته ليباعوا هناك في سوق الرقيق ·

ولم ينج من سيف الدفتردار أحد حتى العلماء فقد قتل في المتمة الشيخ الريح السنهورى العالم وأكثر من مائة طالب أمامه كانوا يدرسون عليه الفقه المالكي وقتل العالم قمر الدين حفيد الشيخ مجذوب وحرق

---

(١) راجع كاتب الشونة ـ مخطوطة ـ تحقيق الشاطر بصيلي ص ٩٢ ـ ٩٧ وصرار صالح ضرار وتاريخ السودان الحديث ·

مسجد الدامر كذلك قتل بالمدفع الشيخ ارباب الكامل خليفة ارباب العقائد مؤسس مدينة الخرطوم كما قتل الشيخ صالح ولد بانقا العالم الذى ورد ذكره آنفا وقبض على العلامة الفقيه ابراهيم عيسى مؤسس المسجد المعروف وضرب ضربا مبرحا .

لقد قدر مجموع من قتلوا فى حملة الدفتردار الانتقامية بثلاثين ألفا وانتهت بذلك صفحة دموية لم تشهد السودان مثلها تركت جرحا غائرا فى فلول المواطنين سنوات عديدة وفر منهم من فر الى حدود البلاد الشرقية وتركوا المدن والقرى خالية خاوية ويروى أن من ضمن الأسباب التى دفعت محمد على باشا الى زيارة السودان عام ١٨٣٩ م محاولته لرأب ما صدعه (١) الدفتردار ولم يدع سبيلا لارضاء السودانيين الا سلكه .

(١) ابراهيم فوزى ـ السودان بين يدى غردون وكتشنر .

● الطلاب السودانيون يقبلون على الأزهر

لقد توفى القاضى محمد الأسيوطى الحنفى فى مدينة ود مدنى بعد عام من فتح البلاد أما الشيخان أحمد البقلى وأحمد السلاوى المالكى فقد رجعا الى مصر .

وبذلك شهد السودان عهدا ارتبط بمصر ارتباطا وثيقا فى كل المجالات بعد أن قامت لاول مرة فى البلاد حكومة مركزية وانتظمت فيها كل أسباب السلام وازداد اقبال السودانيين على مصر للاستزادة من العلم فى رحاب الازهر وهاجر الكثيرون بما لا يتسع المجال لذكرهم هنا وأقام بعضهم بمصر واستقر بها وعاد الآخرون الى بلادهم للعمل فى نشر العلم وتبصير الناس بشئون دينهم .

ويروى أن سودانيا اسمه محمد على وداعة قد حضر الى مصر طلبا للعلم فى الازهر ووجد هناك ستة من الطلاب السودانيين وبعد خمس سنوات من مواصلة دراسته فى الازهر تقدم نيابة عنهم لوالى مصر بانشاء (١) رواق خاص بهم وقد وافق محمد على باشا على طلبه وأنشىء الرواق عام ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م وقد حمل اسم رواق السنارية نسبة الى سنار الاسم الذى يطلق على السودان وكان الشيخ عجيب أحد ولاة دولة سنار (١٥٠٥ ــ ١٨٢١ م) قد أنشأ رواقا لهم توقف عنه المدد منذ آخر دولة سنار .

(١) عبد العزيز عبد المجيد ـ التربية فى السودان . ج ٢ ص ١٩ .

كان الطلاب السودانيون من أبى محمد (المناصير) فجنوبا وشرقا هم الذين يلتحقون بالرواق ثم انشيء فيما بعد رواقان ـ رواق دارفور وكانت دارفور سلطنة منفصلة عن سنار ورواق (١) البرابرة وهو خاص بالطلاب النوبيين السودانيين وقد تغير اسمه الى رواق شمال السودان بناء على رغبة ابداها السيد عبد الرحمن المهدى للشيخ مصطفى المراغى شيخ الازهر عند زيارته له فى الازهر فى مطلع الثلاثينيات .

اهتم محمد على باشا وحفيده اسماعيل باشا بالتعليم الدينى فى السودان فخصصا المنح والاعانات المالية للعلماء والفقهاء كما شيدت وعمرت فى عهديهما كثير من المساجد والخلاوى والزوايا التى كانت بحق مراكز للاشعاع العلمى والدينى . فى طول البلاد وعرضها كما شجعا التحاق السودانيين بالازهر وقد كان هناك من حكام السودان فى ذلك العهد من أبدى اهتماما بالغا بايفاد السودانيين للازهر لمواصلة تعليمهم مثل الحكمدار جعفر مظهر (١٨٦٦ م ـ ١٨٧١ م) المصرى الجنسية والذى كان ذا ثقافة واسعة وعلم نافع وقد وصفه الرحالة الفرنسى ف . لافارقو بأنه « رجل كتاب ومسجد » (٢) وكان يقرب اليه العلماء السودانيين مما جعلهم يلتفون حوله وكانت تربطه صداقة بالشيخ الأمين الضرير مميز علماء السودان .

كتب الحكمدار جعفر مظهر لمصر يطلب الموافقة على ارسال بعثات من الطلاب السودانيين حفظة القرآن وممن حصلوا على بعض مبادىء النحو والفقه بغية الانتساب للازهر لفترة ثلاث سنوات يعودون بعدها لأهلهم رسل ثقافة دينية سليمة ودعاة دين قويم ولعل مما حدا به لذلك خشيته من اتساع نفوذ رجال التصوف الذين انتشروا فى ربوع البلاد بعد أن سمت مكانتهم وأصبح لهم أثر كبير وسط المواطنين .

وقد صحب معه طالبين سودانيين من كسلا (٣) عندما غادر البلاد ليواصلا تعليمهما فى الازهر وقام بتقديمهما بنفسه للشيخ مصطفى العروسى شيخ الازهر حينذاك وأوصاه بهما خيرا .

---

(١) هذه الرواية قصها على الشيخ محمد المبارك عبد الله شيخ علماء السودان الاسبق .

(٢) د. شوقى الجمل . تاريخ سودان وادى النيل جـ ٢ ص ١٤٦ .

(٣) د. عبد العزيز عبد المجيد ـ التربية فى السودان جـ ٢ ص ٦١ .

وخلاصة القول شهد ذلك العهد هجرات متلاحقة ومتصلة للازهر وتوسعا ملحوظا فى التعليم الدينى وانتظام العلماء السودانيين فى سلك التدريس والقضاء الشرعي ٠

ثم ادخل التعليم المدنى الحديث وعرفت البلاد لأول مرة مدارس فى بعض مدنها على غرار ما كان يجرى فى مصر وكانت تدرس فيها اللغة التركية وبعضها الفرنسية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ كما كـان يدرس فيها علماء من الازهر علوم اللغة والدين كشرح الكفراوى وشرح الشيخ خالد أو شرح الازهرية وشرح ابن عقيل على الفية ابن مالـك ويمكننا من ذلك أن ندرك المستوى العلمى الرفيع الذى بلغته تلـك المدارس ٠

● متخرجو الأزهر السودانيون
فى العهد التركى
(١٨٢١ - ١٨٨٥ م)

ومن الرعيل الأول من السودانيين الذين تخرجوا فى الازهر وعادوا لينشروا العلم فى بلادهم أسرة عيسى بشارة الانصارى : وعيسى بشارة هذا هو أحد أئمة الدين والعلماء العاملين ولد فى المدينـــة المنورة فى أوائل القرن العاشر الهجرى وفيها حفظ القرآن ثم ســـافر الى مصر فى طلب العلم وتفقه فى الازهر على شيوخ الاســلام ـ الشـــيخ زكريا (١) الانصارى الشافعى الذى وصفه ابن اياس فى بدائعه بأنه « الامام العــالم العامل شيخ الاسلام والمسلمين مفتى الانام فى العالمين بقية السلف وعمدة الخلف عالم الوجود على الاطلاق ومن ذكره شاع فى الافاق « المتوفى عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠ م وكذلك على الشيخين محمـــد البنوفرى المالكى وبرهان الدين بن أبى شريف قدم الشيخ عيسى الســـودان وتزوج بنت ملك الجموعية وانشأ مسجدا فى قرية كترانج التى تقع فى الضفة اليمنى للنيل الازرق على بعد ٣٦ ميلا جنوب الخرطوم وقد اقبـــل الناس على الشيخ عيسى وأبنــائه وأحفاده يتلقــون عليهم العلم وكان الشيخ عيسى بارعا فى المذهبين المالكى والشافعى ونابغة فى العلوم المعقولة والمنقولة ٠

يعتبر مسجد كترانج أول معهد علمى فى السودان الاوسط ومازال يؤدى رسالته الى اليوم أى ما يقرب من خمسة قـرون وقـــد الحق به مسجدان آخران بعـد أن ضاقت مساحته بوفود الطـلاب والدارســين والمهاجرين ٠

---

(١) عز الدين الأمين ـ قرية كترانج وأثرها العلمى على السودان ٠

اقبل بعض من أفراد أسرة الشيخ عيسى على الدراسة فى الازهر وتلقوا العلم على أيدى نفر من أساتذته النابهين حيث منحوهم اجازات علمية تشهد بعلو كعبهم فى العلوم الشرعية والفتاوى على المذاهب الثلاثة ـ المالكي والشافعي والحنفي .

لقد كان فضل هذه الاسرة على السودان كبيرا فقد وهبت البـلاد أكثر من أربعين عالما وفقيها عملوا فى نشر التعليم فى مختلف العهود ابان سلطنة سنار واثناء الحكم التركى وفى فترة الحـكم البريطـانى على السودان وبالطبع فقد تفاوتت منازل هؤلاء العلمـاء من حيث حصيلتهم الدينية ومن حيث عطـائهم ولكنهم أسهموا جميعـا فى بناء ذلك الصرح الدينى العتيد الذى كان أول مركز اسلامى يشيد فى السودان الاوسط .

من علماء هذه الاسرة البارزين الشيخ أحمد بن عيسى المتوفى فى سنار عام ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م وكان قد حفظ القرآن فى كترانج ثم سافر الى مصر ودرس على شيوخ الاسلام أحمد الدردير ومحمد الامـير والشريف مرتضى الزبيدى وغيرهم ثم عاد واشتغل بالتدريس فى مسجد جده عيسى بن بشارة ويعتبر وبحق اعظم علماء السـودان فى عصره وأكثرهم حذقا للعلم وكان لا يكتفى بالتدريس فى مسجـد كترانج بل يتنقل الى سنار قصبة البلاد انذاك حيث كانت حلقة درسه يؤمها طـلاب العلم من كل ربوع السودان ومن الاقطار المجاورة .

وعند وفاة الشيخ أحمد ود عيسى رثاه الشيخ أحمد السلاوى العالم المالكي والذى قدم السودان مع الجيش التركى الفاتح وقـد عين قاضيا لقضاة السودان بقصيدة طويلة وتحدث عنه بقوله : ـ

« ..... وبالجملة فما وجدت فى بلاد السودان عالما أعلم ولا أورع منه ومن تلامذته ولا وجدت عندهم علما انظف ولا اصفى من علمه .... وتلامذته عندى مقدمون على ساير علماء السودان حتى وليتهم جميعـا نيابة القضاء والافتاء والتدريس فى اماكنهم فى الجزيرة .... » وكذلك نعاه الشيخ أحمد كاتب الشونه فى مخطوطته تاريخ (١) مدينة سنار بقوله : ـ

« توفى فى تلك السنة شيخ الاسلام العالم العامل مرشد الطالبين ومحيى شريعة سيد المرسلين من افنى عمره فى طاعة الله واصلاح المسلمين

---

(١) احمد بن الحاج كاتب الشونة . مخطوطة . تحقيق الشاطر بصيلى ص ١٠٢ .

الفقيه أحمد بن عيسى وذلك فى آخر السنة فى شهر الحجة الحرام رحمه الله آمين وله مناقب كثيرة وفضائل شهيرة ويكفى منها بذله للعلم وصبره على الاذى وذلك اجل مناقب الكرام · »

تلقى العلم على الشيخ أحمد عيسى نخبة من خيرة العلماء والفقهاء نذكر منهم ابنه الشيخ ابراهيم والشيخ محمد بن بدر المعروف بالعبيد منشىء مدينة أم ضوا بان العلمية والتى تخرج فيها ومازال آلاف من طلاب العلم · وظلت نار القرآن (١) موقدة فيها لم ينطفىء أبدا منذ انشاء المدينة العلمية أى منذ أكثر من مائة وستين عاما ومنهم أيضا الشيخ بدوى أبو صفية البديرى المدفون فى مدينة الابيض عاصمة اقليم كردفان وهو صاحب الاثر المحمود فى نشر الاسلام فى جبال النوبة فى غرب السودان وكان يأتى بالنوبة من جبالهم ويعلمهم القرآن والحد الأدنى والضرورى من الفقه والتوحيد ثم يعيدهم الى مناطقهم لينشروا الدين بين قبائلهم ومن العلماء الذين درسوا عليه العلامة الاديب والمؤرخ ابراهيم عبد الدافع أول من تقلد منصب الافتاء فى العهد التركى ومنهم الفقيه والكاتب حسين ود عمارى من دارفور ومنهم الفقيه محمد الجبيل نسبة الى موطنه جبيل أم على فى شمال السودان والاديب الفقيه الشيخ فرح ود تكتوك فى سنار ·

ولكى نلقى مزيدا من الضوء على أثر أسرة الشيخ عيسى الانصارى نذكر كبار من تخرجوا فى مساجدها من العلماء والفقهاء فى مختلف الاوقات ·

كان الشيخ ابراهيم بن أحمد بن عيسى قد حل محل ابيه بعد وفاته بل وقبل ذلك عندما رحل الشيخ أحمد الى سنار ليعلم الناس هناك · لقد بنى الشيخ ابراهيم المسجد المعروف الى اليوم « مسجد ود عيسى » بعد ان تكاثر عدد الطلاب فى كترانج وكذلك بنى الشيخ محمد أحمد البدوى مسجدا ثالثا فى قرية السعودية بالقرب من كترانج ومسجد هنا يعنى مركزا اسلاميا أو مدينة بعوث بلغة اليوم بكل ما تحمل الكلمة من معنى وكان محمد على باشا عند زيارته للسودان عام ١٨٣٨ قد أمر بتجديد بناء المسجد بالطوب المحروق الاحمر وأصبحت الدولة تقوم بالصرف عليه ·

---

(١) المقصود هنا ان الطلاب يدرسون فى الليل فى العراء على ضوء نار يوقدونها من حطب يجمعونه بأنفسهم وهذا تقليد تسير عليه خلاوى القران منذ عدة قرون والى يومنا هذا ·

وممن درسوا فى مساجد كترانج على أسرة عيسى ود بشارة الانصارى الامام محمد أحمد المهدى قائد الثورة المهدية ومحرر السودان فقد تلقى عنهم بعض علوم اللغة والدين ككتابى « قطر الندى وبل الصدى وشذور الذهب فى معرفة كلام العرب » للعلامة النحوى المصرى ابن هشام » (١٣٠٨ ـ ١٣٦٠ م) الذى كان يقارن بسيبويه وفى الدين رسالة أبى زيد القيروانى وجوهرة التوحيد وبعدها ارتحل الامام المهدى ليوالى دراسته على الاستاذ محمد الخير فى بربر وكان الامام (١) المهدى نفسه ينوى السفر لمصر للدراسة فى الازهر ٠

لقد تخرج فى الازهر أيضا فى ذلك العهد علماء نذكر منهم :

الشريف محمد الامين الهندى :

وهو عميد أسرة الهندى المعروفة فى السودان ومؤسس الطريقة الهندية واصل الشريف محمد الامين دراسته فى الازهر حيث قرأ القرآن بالتجويد وحفظ الشاطبية واتقن فهمها كما قرأ كتاب غيث النفع فى القراءات السبع ثم عاد وفتح مسجدا بقرية نواره على نهر الرهد أحد روافد النيل الازرق فأمه الطلاب من جميع الجهات يحفظون فيه القرآن ويقرأون علم التجويد والقراءات بالكتابين المذكورين وتوفى فى الرهد عام ١٨٨٣ م ٠

الشيخ البشير ود نعمة :

وقد تخرج فى الازهر ودرس أيضا على جمال الدين الافغانى وكان زميلا للشيخ محمد عبده وكان نابغا فى الفلسفة وعاد ليدرس مواطنيه فى مدينة رفاعة على النيل الازرق غير ان مدرسته اغلقت كغيرها من المدارس فى عهد الثورة المهدية ٠

الشيخ أحمد الازهرى :

وهو ابن الشيخ اسماعيل الولى الكردفانى وقد تلقى الشيخ أحمد علومه فى الازهر حوالى عام ١٨٣٠/٤٠ م وأصبح مدرسا فيه ثم عاد الى الابيض عاصمة كردفان وبنى فيها جامعا ومنازل لاقامة الطلاب الذين

---

(١) جهاد فى سبيل الله ـ اعداد عبد الله محمد أحمد ص ٤ ٠

وفدوا من كل البقاع للدراســة عليــه وكانوا يتلقون فى تلك المنشئات العلمية القرآن واللغة والفقه والتوحيد وغيرها وعمــل قاضيا فى غــرب السودان وقد قتله انصار المهدى فى أحد المعارك عام ١٨٨٢ م وعــرف بالازهرى وقد سار هذا اللقب على أسرته من بعده ومنهم حفيده اسماعيل الازهرى أحد قادة الحركة الوطنية وأول رئيس وزراء فى السودان •

وبجانب هؤلاء العلمــاء السودانيين الذين تخرجوا فى الازهر فى العهد التركى (١٨٢١ ـ ١٨٨٥ م) هناك علماء ازهريون ادركوا الثورة المهدية وانخرطوا فى صفوفها وشغلوا مناصب فيهــا ســيرد ذكرهم فيما بعد •

● مدرسة الخرطوم الابتدائية

أولى تلك المدارس وأهمها على الاطلاق مدرسة الخرطـــوم التى فتحت فى عهد الخديوى عباس ويجدر بنا أن نتحدث عنها ببعض الاسهاب .. اختير لتلك المدرسة العلامة المصرى الازهرى رفاعة رافع الطهطاوى وهو من اعلام النهضة المصرية ان لم يكن شيخهم وكان قد عاد من أول بعثة بعثها محمد على باشا الى فرنسا وهو الذى أسس مدرسة الألسن فى مصر والتى اضطلعت بترجمة كثير من الكتب الافرنجية وقد بلـــغ مجموع ما ترجمه رفاعة وطلابه الفى كتاب وكتيبات فى مختلف المواضيع ونستطيع ان نقول أن رفاعة رافع هو صاحب الفضل فى نقل الثقافـــة الغربية وتبسيطها وتعريفها فى اذهان المصريين اذ لم تكن معروفة لديهم من قبل وكان على حظ كبير من العلم والمعرفة وتأثر بفولتير وروســو وألف كتبا كثيرة أهمها تخليص الابريز فى تلخيص باريز الذى يوضح انطباعاته فى فرنسا ويحوى آراء ومبادىء ديمقراطية لم يكن يرضى عنها الحاكم المستبد ويقال انه أرسل الى السودان منفيا بسبب ذلك ولا غرابة فعباس باشا الذى أغلق المدارس فى مصر وعطل دور العلم فيها لم يكن حريصا على فتحها فى السودان بطبيعة الحال .

عهد لرفاعة باختيار المعلمين ليفتح المدرسة (طبق الترتيبات الجارية بالمدارس المصرية ولا سيما الأصول الجاريـــة بمدرستى المبتديـــان والتجهيزية) اختار رفاعة أحد عشر معلما وطبيبا هم :

(١) القائمقام محمد بيومى أفندى (١) :

وهو من تلامذة البعثة الأولى ولما عاد من فرنسا عين مدرسا بمدرسة المهندسخانة ببولاق وكان أستاذا ومرجعا لكثير من نوابغ المهندسين المصريين وصار كبير الأساتذة بمدرسة المهندسخانة فى عهد نظارة لامبير بك ثم انتقل من التدريس الى قلم الترجمة بديوان المدارس اشترك مع رفاعة بك رافع فى العمل واشتغل بترجمة الكتب فى الفن الذى اتقنه وعين فى عهد عباس باشا مدرسا للحساب فى مدرسة الخرطوم الابتدائية وتوفى فى الخرطوم عام ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م .

وما يلى بعض الكتب التى ترجمها :

١ ـ ثمرة الاكتساب فى علم الحساب عن الفرنسية طبع عام ١٢٥٦ هـ .

٢ ـ كتابى الجبر والمقابلة طبع عام ١٢٥٦ هـ .

٣ ـ ثمرة الاكتساب فى علم الحساب جزءان فى مجلد واحد طبع عام ١٢٦٣ هـ .

٤ ـ الهندسة الوصفية (مجلدان) طبع عام ١٢٦٣ هـ .

٥ ـ جامع الثمرات فى حساب المثلثات ترجم بأمر مدير المدارس وهو يشمل حساب المثلثات المستقيمة والكروية طبع عام ١٢٦٤ هـ .

٦ ـ مثلثات مستوية وكروية ـ ترجم بالاشتراك مع أحمد طاويل .

٧ ـ ميكانيكية أى علم جر الأثقال ترجمة بالاشتراك مع أحمد طاويل .

(٢) الصاغ أحمد طائل أو طاويل(١) :

تلقى العلم بمدارس مصر وألحق بالبعثة المصرية وعين اثر عودته من فرنسا بمدرسة المهندسخانة مساعد مدرس ومعيدا لدروس الاستاذ محمد بيومى الى أن صار مدرسا للعلوم الميكانيكية ـ اشترك مع بيومى

---

(١) جاك تاجر ـ حركة الترجمة فى مصر خلال القرن التاسع عشر ص ٦٣ .

في ترجمة مؤلفين وترجم كتابا اسمه (تركيب آلات) وقد أخذ منه أكثر من مهندس في ذلك العهد :

٣ ــ الملازم أول على محمد أفندى(١) ٤ ــ الملازم ثان على عثمان أفندى ٥ ــ الملازم ثان ابراهيم محمد أفندى ٦ ــ الملازم ثان محمد مرسى أفندى ٧ ــ الملازم ثان أمير أفندى	يرجح أنهم من تلاميذ رفاعه في مدرسة الألسن .
٨ ــ الملازم ثانى الشيخ رجب ٩ ــ الملازم ثانى الشيخ مكاوى	كانوا عالمين بالأزهر
١٠ــ الملازم ثان سليمان السيوطى	.. طبيب .

هؤلاء هم هيئة التدريس التى رافقت رفاعة للعمل في مدرسة الخرطوم وهم يمثلون نخبة من الأساتذة الذين أسهموا بنصيب وافر في تاريخ التعليم في مصر آنذاك ويلاحظ أنهم كانوا يمنحون رتبا عسكرية وكذلك الطلاب كانوا يسيرون على النهج العسكرى غير أن المدرسة لم تفتح الا في عام ١٨٥٣ م أى بعد ما يقرب من ثلاث سنوات من قدوم رفاعة ومعاونيه الى البلاد وقد أنحى أحد المؤرخين المصريين باللائمة على رفاعة بل اتهمه بالتراخى والبطء في القيام بما كلف به طيلة هذه المدة وقد أغلقت المدرسة بعد عام من افتتاحها بسبب عدم اهتمام الخديوى سعيد الذى خلف عباسا أو من جراء تذمر أو شكاوى رفاعة .

وحقيقة لم يكن رفاعة متحمسا للعمل في السودان اذ كان ظنه انه بعث اليه منفيا وكان يجأر بالشكوى وينظم الشعر واصفا سوء حاله في السودان بقوله (٢) :

وما السودان قط مقام مثلى ... ولا سلماى فيه ولا سعادى
وقد فارقت أطفالا صغارا ... بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهم سرا وجهرا ... ولا سهرى يطيب ولا رقادى

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد ــ التربية في السودان جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) عبد العزيز عبد المجيد ــ التربية في السودان جـ ٢ نقلا عن مناهج الألباب .

مع أنه هو نفسه القائل على لسان مصر والسودان :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد جميعا في الحب ضم النطـــاق
في جبين الزمان منـــك ومني غـــرة كوكبيـــة الائتـــلاق

كانت سن القبول في المدرسة تتراوح بين السابعة والثانية عشرة وكان المأمول أن تطور وترقى على غرار مثيلاتها من المدارس في مصر غير أن أغلب طلابها كانوا من أبناء الاتراك والمصريين العاملين والمقيمين في السودان وذلك لعزوف السودانيين عن ارسال أبنائهم لهذا النوع من التعليم النظامي الحديث الذي لم يعهدوه من قبل وكانوا يفضلون عليه التعليم الديني . كان الطالب الســـوداني آنذاك يلتحق بالخلوة لحفظ القرآن أساسا والعمليات الأربع (الجمع والطرح والضرب والقسمة) .

وفي مدة بقائه بالخرطوم ترجم رفاعة من الفرنسية كتاب « مواقع الافلاك في اخبار تليماك » وهو كتاب لقس كان مربيـا لحفيـد لويس الرابع عشر استقاه من الميثيولوجية اليونانية ليقرأه الأمير الشاب فتنمو فضائله ويقـوم اعوجاجه وكذلك شرع في تأليف كتـابه القيم « مباهج الألباب المصرية ومناهج الآداب العصرية » وقد سجـــل فيه رأيــــه عن السودانيين بقوله(١) ان لهم « قابلية للتمدن الحقيقي لدقة أذهانهم فان أكثرهم قبائل عربية لا سيما الجعليين والشايقية وغيرهم واشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد ولهم تأثر عظيم في حســن التعليم والتعلم حتى ان البلدة اذا كان بهـــا عالم شهير يرحل اليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين (أي الطلبة) على البيوت بحسب الاستطاعة فكل واحد من الأهالي يخصه الواحد أو الاثنان فيقومون بشئونهم مدة التعليم والتعلم » .

ويروى أحد(٢) الكتاب السودانيين الذين درسوا في مدرسة الخرطوم عام ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م انه سمع من بعض فضلاء الســـودانيين وكذلك من علي باشا رفاعة بن رفاعة ووكيل نظارة المعارف آنذاك ومن عامر بـــك سعد وهو من أعاظم المدرسين من معاصري رفاعة ان رفاعة شرع في

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوي . مناهج الالباب . ص ٢٦٢ .

(٢) من مقال لسليمان كشه عن مدينة الخرطوم في جريدة الثورة بتاريخ ١٩٦٤/٧/٢٨ والمشار اليه هنا هو المواطن محمود القباني .

تخميس البردة للبوصيري التى مدح فيها النبى (صلعم) وعندما فرغ منها أقام حفلا كبيرا دعا له كبار السودانيين وعلماءه حيث سهرت الخرطوم ليلة من أبهج لياليها وقبل أن يطلع الفجر رأى رفاعة النبى (صلعم) بين اليقظة والنوم مصافحا ومخاطبا له :

« قبلت هذا التخميس وأجزيك عليه بالعودة الى القاهرة وسيصلك الأمر بتاريخ هذا اليوم » وبعد أربعة أسابيع وصل البريد والأمــــر مؤرخا بتاريخ اليوم وقد قرأه الناس بعد أن سمعوا بحديث الرؤيــة صبيحة يوم الحفل ٠

عاد رفاعة الى مصر وتوفى فيها عام ١٨٧٣ م ٠

هذا وقد أصدر الخديوى اسماعيــل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) أمــــره الى مدير ديوان المدارس بتاريخ ١٩ ربيع الأول ١٢٨٢هـ (١٨٦٧م) بانه « بناء على التماس حكمدار السودان يكلف رفاعة بك بترجمة الباقى من كتابه ملطبرون (الجغرافى) ويعهد اليه أيضا أمر ترجمة كتــاب الربان اسبيك الانجليزى المرسل منه نسخة فرنسية والباحث فى شئون سكان وادى النيل من منبعه الى مصبه لترسل بعد طبعه خمســـــون نسخة عربية منه لتدريس تلاميذ المدارس السودانية وتوزيعها عــلى الضباط والمواطنين الملكيين » ٠

ومهما يكن من أمر فقد حظى الســودان بوجود ذلك العــالم بين ظهرانيه زهاء الأربع سنوات على رأس تلك المدرسة التى هى الأولى من نوعها اذ كانت تسير على النهج النظامى الحديث كما أفاد المواطنـــون من معاونيه اذ قرر رفاعة فى كتابه ٠٠ « قد تعلم فقهاء الخرطوم ممــن مضى من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك » ٠

وفى عام ١٨٦٣ فى عهد الخديوى اسماعيل أعيد فتح مدرســـة الخرطوم كما فتحت مدارس أخرى فى عواصم المديريات فى بربر ودنقلا والأبيض وكسلا ٠ ويقول أحد تلامذة مدرسة الخرطوم وهو الشيخ(١) محمود القبانى الذى ولد عام ١٨٧٣ وقد التحق بها عام ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م :

---

(١) عبد العزيز عبد المجيد ـ التربية فى السودان جـ ٣ ص ٢٦ ٠

" كان ناظر المدرسة آنذاك اليوزباشى الحسن طه أفندى خليل من مديرية البحيرة وهو من أسرة فتح الله بركات باشا وكان من بين مدرسيها العلامة أحمد محمد الجداوى الاسوانى متخرج الازهر وكان يعمل قبل ذلك قاضيا على عموم دارفور فى غرب السودان وقد خلفه الشيخ حسين مجدى الدمياطى الازهرى والشيخ محمد ابراهيم عبد الدافع بن ابراهيم عبد الدافع أول سودانى تولى منصب المفتى وكان مدرسا للحساب والشيخ على التمورجى مدرس الخط وهو من أصل مصرى مولود فى الخرطوم ومن تلاميذ رفاعة مثل محمد ابراهيم عبد الدافع ومدرس الفرنسية السيد أفندى نعيم الذى أصبح بعد ذلك السيد بك نعيم وهو اسكندرى تخرج من مدارس باريس وكان صيدليا لعموم السودان وهناك مدرسون آخرون لم اقرأ عليهم .

وكان يتبع هذه المدرسة خلوة من فصلين لتعليم القرآن وكان الاولاد داخلية وبها مدرس الفصل الأول الشيخ على طلبه المعروف فى السودان بأنه فقيه مصرى وكان له صوت جميل وفى الفصل الثانى الشيخ بكرى الجرجاوى والشيخ محمد عبد القادر التربى من نسل مصرى ومولود فى الخرطوم .

كان فى المدرسة قسمان قسم برانى (خارجى) يدفع مصاريف وأنا من القسم البرانى وقسم داخلى عدده مائتان ونظامه عسكرى ويصرف للتلامذة أكلا وملابس ومرتبات عسكرية وكانت أعمارهم تتفاوت من ١٢ الى أكثر من عشرين وكانوا يتعلمون فيها .

وكان الداخلى والبرانى يتعلمون معا فى فصول واحدة ويتلقون نفس المواد الا الفرنساوية فانها كانت اختيارية للقسم البرانى وكنت أنا ممن يتلقون اللغة الفرنسية وكانت بجانبى بنت المدرس وهى البنت الوحيدة التى كانت تحضر الدروس دروس والدها السيد نعيم وهذه البنت اسمها فاطمة ونقلت من الخرطوم قبل حصار المهدى للخرطوم وأتمت دروسها فى أوروبا وتزوجها المرحوم محمد بك مسعود المؤرخ .

كان عدد التلاميذ البرانى أكثر من ٣٠٠ وكان معى فى درس الفرنساوى تلميذ من أولاد البرانى هو محمود سامى بن أحمد فهمى الصيدلى الثانى مع السيد نعيم .

وكان كل التلاميذ الداخلية ٢٠٠ والبرانى ٣٠٠ فى وقت الدرس

يجلسون على الأرض ويكونون أربعة فصول أما فى درس الفرنساوى فنجلس على تخت ومكاتب أمامنا .

كنا نتعلم الحساب واللغة العربية والفرنسية للبعض والتركية وكانوا يعتنون جدا بالخط الفارسى (وكان يسقط فى الامتحان من يسقط فى الخط) .

كانت مصاريف البرانى فى الشهر ريال مجيدى أى ١٦ قرشا ـ وكان التلاميذ الداخلية يلبسون لبسا عسكريا أما البرانى فكانوا أحرارا يلبسون كما يشاءون .

كان فى الخرطوم فقهاء يقرأون القرآن باللغة المصرية وتراهم بين أسود ومشلخ وهم لم يجيئوا من مصر ولكنهم تعلموا على يد شيوخ مصريين فى الخرطوم وكان يوجد فى الخرطوم شيخ للفقهاء كما فى مصر يعطى راتبا ويعلم الناس التجويد ومنهم الشيخ محمد السقا الذى قتل فى سقوط الخرطوم .

وكذلك يوجد نساء مقرئات للقرآن كما فى مصر يعلمن بنات الاكابر فى بيوتهن القرآن والدين والخط » .

● احتفال مدرسة الخرطوم
فى الوقائع المصرية

كانت مجلة الوقائع المصرية تنشر حفل امتحان المدرسة السنوى واننى انقل هنا بعض ما جاء فى عدد رقم ١١٩٤ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٩٨ هـ الموافق ١٨ أغسطس ١٨٨١ م عن حفل الامتحان عن تلك السنة .

فى يوم الاثنين المبارك ٣١ شعبان المعظم سنة ١٢٩٨ هـ احتفل فى هذه المدرسة لامتحان تلامذتها كما جرت به العادة المألوفة فى كل عام فكان هذا الاحتفال جميل الهيئة جليل المنظر حضره جمع غفير من رؤساء الحكومة الكرام ووجوه العلماء الاعلام وعدد كثير من الذوات الفخام وتحلى جيد هذا المحفل بواسطة هذا العقد النضيد سعادة محمد رءوف باشا حكمدار السودان ولما أن تم الاحتفال على هذا الوجه الفائق افتتح التلميذ الأول طه أفندى زكى الامتحان بتلاوة خطبة رائعة وقصيدة فائقة وهى من انشاء حضرة الفاضل أحمد أفندى جداوى الأسوانى أول خوجات المدرسة ثم بعد أن فرغ من تلاوتها قام هو والتلميذ الثانى حسن أفندى صبرى فابرزا بديع تخيلات الحريرى الى حيز الوجود وأرقيا صنيع مخترعات مقاماته الى مقام الشهود فبينا مافى المقامة الفقهية من عجائب وكشفا عن غوامض ما أحرزته فتواها من الغرائب فكان أحدهما سائلا والثانى مجيبا وكلاهما موفق ومصيب وقد ابتهج سرورا بذكائهما جميع الحاضرين وشهدوا لهما بأنهما من انجب المشتغلين ثم سئلا فى علم العربية عن جملة أبيات من شواهدها وعن كثير من قواعدها ثم فى اللغة الفرنساوية والفنون الحسابية فاجابا فى

كل ذلك بما دل على انهما من البارعين وصدحت لهما الموسيقى بنغمـــات الفرح والاعجاب ثم قام بعدهما بقية التلاميذ وسئلوا واحدا واحدا فيما حصلوه من العلوم واللغات فكانت اجـــابة الجميع بما تقر العين وتسر الفؤاد وتدل على ان مستقبل هذه المدرسة سيكون لى فى نبأ عظيم وكان الفراغ من اختيار جميع الطلبة فى الســـاعة العاشرة من يــوم الثلاثاء فقام كل الحاضرين فرحين مسرورين بما شاهدوه من براعة هؤلاء التلامذة مثنين على معلميهم وأساتذتهم وحضرة الناظر بالثناء الجميل على مابذلوه من الهمة والنشاط فى التعليم داعين للجناب الخديوى المعظم ولرجـــال حكومته الكرام بأن ينفع بعنايتهم الوطن وان يديم شمس وجودهم فى آفاق البلاد فيتحقق لأبنائها الراحة والاســعاد وان يمتع جنابه الكريم ببقاء أنجاله ما لاح بدر الكمال وفاح مسك الختام » .

لقد أدت هذه المدارس النظامية خدمات (١) للادارة التركية فمدتها بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهوضا فى الثقافة والادب فى ربوع البلاد جنبا الى جنب مع خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية .

كما لم يتوقف اقبال العلماء الأزهريين الى السودان ولم يدل من عزمهم على مواصلة اداء رسالتهم فى مرفقى التدريس والقضاء . وقد ظلوا على ذلك الحال الى نهاية الحكم التركى على البلاد عام ١٨٨٥ ـ لقد كانت نخبة ممتازة نذكر منهـا على ســـبيل المثـال الشيخ حسين المجدى والشيخ شاكر المفتى والشيخ محمد موسى مفتى المحاكم الشرعية والشيخ محمد السقا شيخ القراء وهؤلاء قتلوا جميعهم عندما فتح المهدى الخرطوم صـــباح ٢٦ يناير عام ١٨٨٥ م ونذكر أيضا من هؤلاء العلماء الشيخ أحمد محمـد الجداوى الأســـوانى الذى كان يعمل قاضيا فى دارفور ثم نقل كبيرا لمدرسى مدرسة الخرطوم والشريف المحروقى الشاذلى وكانوا يدرســـون بالاضـــافة الى أعمالهم الرسمية الاخـرى فى جامع الخرطوم العتيق مع أقرانهم العلماء السودانيين .

(١) د. مكى شبيكة ـ السودان فى قرن ص ٤١ .

● القضاء فى العهد التركى

عكفت الادارة الجديدة فى السودان على تنظيم القضــاء مع غيره من مرافق الدولة فانشــأت المحاكم الشرعيــة فى المراكز والمديريات وعينت قاضــيا سمى بقاضى عموم السودان ليختار القضــاة الشرعيين ويكون المسئول الأول عن القضاء فى البلاد وكان قاضى عموم السودان ومفتى مجلس الاستئناف وشيخ العلماء يعينون بأمر خديوى مصر أما غيرهم من القضاة يرشحهم قاضى عموم السودان ويعينهم حكمدار البلاد ٠

كان أول من شغل منصب قاضى عموم الســـودان هو (١) الشيخ محمد الأسيوطى الذى كان أحد الأئمة الثــلاثة الذين رافقوا حملة الفتح كما أشرنا الى ذلك سابقا وكان من علماء الحنفية المعروفين فى مصر وتوفى فى ود مدنى عام ١٨٢٣ ٠

ثم أسند هذا المنصب الى ســـودانى هو الشيخ ادريس من أسرة اليعقوبات المعروفة فى السودان وتوفى عام ١٨٢٦ م ٠

ثم تولى هذا المنصب الشيخ أحمد السلاوى المالكى الذى كان ثالث الثلاثة الفقهاء الذين رافقوا حملة الفتح وقد عاد من مصر عام ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٦ م وقد شدد الوالى محمد على باشا على حكمدار السودان خورشيد باشا الا يقطع أمرا دون مشاورة الشيخ السلاوى ٠

---

(١) القاضى حسين سيد أحمد المفتى ـ تطور القضاء فى السودان ص ٨٩ ٠

كانت بعض القضايا تحـول فى بادىء الأمر الى ديوان الافتاء فى مصر وكانت أحكام أولئك القضاة توضح ما كان للقضاء من قوة فى ذلك العهد وفى نفس الوقت تثبت للعلماء السودانيين مقدرة فى العلم والبحث يصح الافتخار بها (١) .

كان الشيخ أحمد السلاوى عالما وشاعرا ويوصف بأن له عارضة قوية فى المسائل العلمية ويقال ان له تأليفا سماه المحاكمة حكم فيه بين الحنفى والصبان فى حاشيتهما على الاشمونى على الخلاصـة وهـذا طريق شائك لا يخوضه الا متبحر فى العلم (٢) .

ثم تولى منصب قاضى عموم السودان الشيخ ابراهيم الهيتمى عام ١٢٦٢ هـ/ ١٨٤٦ م وكان من كبار علماء المذهب المالكى فى الازهر .

ثم خلفه الشيخ مصطفى السـلاوى نجل الشيخ أحمد السـلاوى المغربى وقد ولد فى الخرطوم وكان شاعرا وأديبا ولكنه عزل من منصبه وأودع سجن طره فى مصر وتوفى عام ١٨٨٧ م .

وكان آخر من اسند اليه منصب قاضى عمـوم السـودان المواطن العلامة الشيخ محمد خوجلى حتيك عام ١٢٧٤ هـ/ ١٨٥٨ م وهو من متخرجى الازهر وظل فى هذا المنصب حتى نهاية الحكم التركى حيث قتل مع من قتل عندما فتح المهدى الخرطوم عام ١٨٨٥ م .

ومن أشهر قضاة المديريات آنذاك العلامة البدوى القرافى (٣) الذى عين قاضيا لمديرية دنقلا ويروى انه رفض ان يأخذ مرتبـا على منصبه واشترط الا يقيد نفسه باللوائح والمنشورات بل يقضى بكتاب الله وسنة رسوله وكذلك الشيخ عربى الهوارى قاضى مديرية كردفان وكان عالما وشاعرا والشيخ عبد الغنى السلاوى وهو مغربى الاصل سودانى المولد وكان أيضا شاعرا مرموقا والشيخ أحمد الازهرى قاض على كردفان .

كان جميع قضاة المديريات من المواطنين السودانيين عدا مديريتى سنار فقد كان قاضيها الشيخ مكى حسن الاصـولى وبربر حيث جلس

(٢،١) من مقال للقاضى يوسف ابراهيم النور ـ مجلة الفجر السودانية العدد الأول مارس ١٩٣٧ عن صحيفة من تاريخ السودان القديم القضاء .

(٣) حسين سيد احمد المفتى ـ تطور القضاء فى السودان ص (١٠٩) .

للقضاء فيها الاستاذ الشيخ حسن الخطيب المصرى وهما بطبيعة الحال من متخرجى الازهر ٠

الافتـــاء :

كانت الصلة قائمة بين علماء مصر والسودان منذ عهد سلطة سنار ودارفور كما أوردنا سابقا وكان علماء السودان يرفعون اليهم ويحاورونهم في بعض الحوادث والقضايا التى تعرض عليهم وفى فترة الحكم التركى على السودان توثقت الصلة وخاصة مع الشيخ العلامة ابى عبد الله الشيخ محمد بن الشيخ أحمد الملقب بعليش الذى تقلد مشيخة المالكية ووظيفة الافتاء فى مصر وكان لفتاوى الشيخ عليش (١) عظيم الأثر الدينى فى السودان فقد كان مرجع الشعب والحكومة فى الافتاء ٠ لقد درس كثير من السودانيين على الشيخ عليش المتوفى عام ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢ م ومنهم شيخ علماء السودان محمد ولد البدوى ٠

كان أول من عين مفتيا للسودان آنذاك الشيخ محمد السليدى عام ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٥ م وكان من علماء مصر العاملين وتوفى عام ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ وخلفه فى هذا المنصب الشيخ ابراهيم عبد الدافع الذى ورد ذكره آنفا والمتوفى عام ١٨٥٤ م ٠

ثم جعلت الادارة التركية مفتيا لكل مديرية لأنه (٢) اتضح لها عمليا صـعوبة الاكتفـاء بمفت عام لكل البلاد ومن هؤلاء نذكر الشيخ اسماعيل عبد القادر المفتى على كردفان والشيخ عبد الحى الطرابلسى على مديرية بربر والشيخ عمر حامد البديرى على دنقلا والاستاذ الشيخ زروق الحلنقى على مديرية التاكا والاستاذ السيد أحمد الشنقيطى على محافظة سواكن وكلهم من متخرجى الازهر ٠

وكانت مسئولية مفتى المديرية افتاء أهل مديريته فى العبـــادات والمعاملات كما كان من اختصاصه النظر فى استئناف أحكام قضاة مديريته وكان مدير المديرية لا يقدم على عمل يتعلق بالاســلام والمسلمين الا اذا اتصل بمفتى مديريته وتحصل على فتوى منه ٠

(٢،١) القاضى حسين سيد أحمد المفتى ـ تطور القضاء فى السودان ص (١٠٩) ٠

● علماء سودانيون توابع درسوا على متخرجي الأزهر

هذا وقد نبغ فى العهد التركى (١٨٢١ ـ ١٨٨٥م) فى السودان عدد من العلماء الذين درسوا على متخرجى الأزهر نذكر منهم الشيخ الأمين الضرير العالم والأديب وعاهل الاسرة الدينية والاجتماعية المعروفه فى السودان وهو ينحدر من قبيلة المحس التى لها فضل لا ينكر فى نشر العلم فى البلاد ٠

تلقى الشيخ الأمين(١) الضرير تعليمه على الشيخ ابراهيم بن عيسى حفيد الشيخ عيسى بشارة الانصارى فى كترانج وقد تنازل الشيخ ابراهيم للشيخ الأمين الضرير عن شهادته العلمية التى تلقاها من والده العالم الجليل الشيخ أحمد بن عيسى ومنحها له تقديرا لعلمه ونبوغه ٠

كان الشيخ الأمين الضرير بحق نابغة عصره وزمانه فى بلاده ولقب بشيخ الاسلام ورئيس ومميز علماء السودان وكانت له مدارس فى توتى ورفاعة والخرطوم وكان يتنقل اليها ويدرس فى كل منها الفقه المالكى والتوحيد وتفسير القرآن والأحاديث النبوية والفية بن مالك فى النحو وقد تتلمذ عليه كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ محمد عمر البنا والشيخ يوسف ولد نعمة والفكى أحمد عوض الله وأحمد نور السرورابى والشيخ محمد ود الجريف وكلهم عرفوا فيما بعد علماء وفقهاء أدوا واجبا كبيرا فى نشر الدين والعلم فى مختلف بقاع السودان ٠

---

(١) ابراهيم عبد الرزاق ـ شيخ الاسلام الفكى الامين الضرير ٠

كان للشيخ الأمين مؤلفات فى علم الفرائض والميراث وبحوث دينية أخرى أدبية وتاريخية نشر بعضها فى مجلة الجوائب فى مصر لصاحبها أحمد فارس الشدياق ومجلة الوقائع المصرية وروضة المدارس ٠

وعندما قام الامام محمد أحمد المهدى بالثورة ونادى بأنه المهدى المنتظر أصدر بعض من علماء السودان آنذاك رسائل تكذيب وبطلان فى دعوة المهدى وطالبوا المواطنين بالا يتبعوه من بين أولئك العلماء كان الشيخ الأمين الضرير وكانت رسالته بعنوان « هدى المستهدى الى بيان المهدى والمتمهدى » ورد عليهم الامام المهدى بمنشور وسماهم بعلماء السوء وذكر أسماءهم ما عدا الشيخ الأمين اذ قال :

« ٠٠٠ فان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وقد يدخر للمتأخرين ما عسر على المتقدمين لا تغتروا بالخطب التى ألفها فى ذمنا وتكذيبنا علماء السوء كأحمد بن اسماعيل الولى وحسين مجدى والمفتى شاكر ومحمد ود حتيك وود الدليل وأمثالهم من وقع فى عرضنا فهؤلاء ممن أدخل الله فى قلوبهم النفاق بحب المال والجاه ٠٠٠ »

وعندما سقطت الخرطوم عاصمة الحكم التركى فى السودان فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ بيد المهدى قتل العلماء الذين سماهم المهدى بعلماء السوء ما عدا الشيخ أحمد بن اسماعيل المعروف بأحمد الأزهرى الذى كان قد قتل فى معركة ضد قوات المهدى فى كردفان عام ١٨٨٣ ٠

توفى الشيخ الأمين الضرير عام ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ ودفن فى أم درمان وقد صلى عليه الامام المهدى ٠

كان الشيخ الأمير الضرير شاعرا أيضا وقد فاز بالمرتبة الثانية فى مسابقة نظمتها مجلة الجوائب وعند اعلان النتيجة علق صاحبها أحمد فارس الشدياق على فوز الشيخ الضرير بقوله :

« ٠٠٠ من الغريب أن يكون من أبناء حام من يتفوق على أبناء سام »
ولما علم الشيخ الضرير بهذا التعليق رد عليه ببحث مستفيض عن عروبة السودان ٠ وللشيخ الضرير قصيدة معروفة مدح فيها الخديوى حينما أسس الخديوى جمعية معارف مصرية للتعاون على نشر العلوم برعاية نجله ـ الأمير توفيق ـ وتزويد البلاد بالكتب القيمة وقد أشار الشيخ الضرير فى تلك القصيدة مثنيا على صديقه حكمدار السودان جعفر مظهر الذى كان يكرم العلماء والأدباء ووصف بأنه رجل كتاب ومسجد ٠

نشرت هذه القصيدة فى مجلة الوقائع المصرية وقدم لها الشيخ الأمين الضرير بقوله :

« لما اطلعت فى نمرة ٣٠١ من الوقائع المصرية المتكلفة بنشر المنافع العصرية على ما صورته من جميل الآثار التى حلت بها هذه الأعصار وتجملت بها مصر بين الأمصار فى ظل الحضرة العلية الخديوية الاسماعيلية انه تأسست جمعية معارف مصرية للتعاون على نشر العلوم كمرغوب الحضرة الداورية تحت حماية حضرة العزيز الأصيل والمشير الجليل دولتلو محمد توفيق باشا أكبر أنجال الخديوى الاكرم وولى عهد جنابه أبقاهم الله رمزا للمعارف وعزا لكل عارف انشأ لسان المقال قاضيا لسان الحال وتاليا ما يقتضى تأكيدا لحب الحال مبتدئا بعد بث أحوال الزمان بما لتلك الجمعية من الأوصاف الحسان مترقبا الى مدح ولاة ذلك الاحسان لا سيما صاحب تلك الحماية والتفضيل بهاتيك الرعاية ثم ختمت ذلك بتاريخ غاية فى المرام به حسن الختام ... » .

وهذه بعض من أبياتها :

الود مأدبه والصدق اخوان
والصادقون لدى الآداب أخوان

أشعارهم ذات اشعار بحالهم
فهى الشعار حظوا بالوصل أو بانوا

خان الاخلاء حتى قال واصفهم
ما للأمين بهذا الدهر خلان

فقلت لاح لى والله ذو كرم
وجعفر الفيض بالخيرات ملآن

حسن التخلص فى أهل الزمان بمن
تضمنوا النفع كى يرتاد ظمآن

فيا أولى الجمع أهل العلم انكموا
فى نشر ما يرتضيه الله اخوان

ومصركم مصر والتوفيق حافظكم
والمعتنى عارف والوقت أبان

الم توزع عليكم كلكم كتب
فى العلم نافعة بالطبع تزدان

الم يكن جمعكم ارعى بصحتنا
الم تيسر على التدرج أثمان

الم يبح لكم فيهـا تناوبكم
اذ ليس يمنع مما رام انسان

فحاصل القول ان العلم قد سهلت
أسبابه اذ بدت للخير أعوان

والطريف ان مجلة الوقائع المصرية علقت في عددها ٣٢٠ المؤرخ الخميس جماد الأول ١٢٨٦ بقولها :

« كثيرا ما نشرت مقالات واردة من السودان بعضها لحضرة حكمدارها المجيد وبعضها لحضرة نجله النجيب السعيد وبعضها لمن يستدل بكلامهم على تمدن تلك الجهات وتنوير قلوبهم بالمعارف وتحليهم بجميل الصفات في هذا العصر المبارك والعهد الذى لا يشارك من بعد ان كان لا ينصرف عند الاطلاق لفظ السودان الا لما حوى أمة متبربرة كأنها ليست من نوع الانسان بعدهم عن العلماء لما بين الارض والسماء وعدم اشتغالهم الا بما تبعثه عليه الوجدانيات كالجوع والعطش واشباه ذلك من الضروريات على خلاف ماهم عليه الآن من الاجتهاد والتشبث بالعرفان الدالة عليه مقالاتهم الواردة المشتملة على كل شارة ، ومن ذلك ما بعث به هذه المرة حضرة ذلك الحكمدار الذى هو في وجه بلادهم غرة ونسبه الى حضرة عالمهم الشهير الشيخ الامين الضرير يريد به زيادة بيان فضله وبراعته من أمثاله ونباله والدرجة التي وصلت اليها هاتيك البلاد والحاق علمائهم بعلماء المدن في الاستعداد وفرحهم بطبع الكتب واستسهال ما به يحصلونها من المصارف وشكرهم بكل لسان جميل جمعية المعارف واجتهادهم في العلوم الادبية ومحاولتها كغيرها من العلوم العربية بالانشاء والتأليف والاملاء والتصنيف حتى حصلوا حسب الطاقة القدر الوافر وخرجوا من ورطة الطبع المتنافر ولعمرى ان كل ذى لب يستكثر من أولئك ذلك وننشره للوقوف على حقيقة الدرجة الى هناك والتشويق الى الزيادة من الافادة والاستفادة ولقد تردد علينا اناس منهم مشتغلون بالعلم بالازهر المعمور هم في غاية التهذيب والنجابة والاستقامة في كل الامور تحسبهم لولا انهم كلهم خيلان وخطط الانصار لا السودان بالجملة فالواجب نشر مآثرهم بلغت ما بلغت شكرا على تناسى بربريتهم التى لفت في هذه

الاوقات الحالية بالمهمة الخديوية العالية وهذا لفظ ما ورد للشيخ الامين الموعود به قيل فى التبين » ·

وقد لاحظ احد (١) المؤرخين السودانيين ان تعليق مجلة الوقائع على مقدمة وقصيدة الشيخ الامين الضريركان ركيكا مما يوضح الفرق الهائل بينه وبين اسلوب القصيدة ومقدمتها ·

الشيخ ابراهيم عبد الدافع :

وهو احد علماء السودان النابهين ــ كان فقيها وشاعرا ومؤرخا ولى القضاء وعين مفتيا للسودان فى حوالى (١٨٤٠ ـــ ١٨٥٤ م) ويقال انه اشترك فى تنقيح مخطوطة الشيخ أحمد كاتب الشونة فى تاريخ السودان مع الشيخ الأمين الضرير والزبير عبد القادر الزين المعروف بالزبير ود ضوه وتعتبر تلك المخطوطة مصدرا رئسيا فى تاريخ السودان فى عهد سلطنة سنار والفتح التركى للبلاد وقد طبعت اليوم وحققها العالمان الدكتور مكى شبيكة السودانى والشاطر البصيلى المصرى ·

ومن شعر الشيخ ابراهيم عبد الدافع قصيدته فى رثاء العالم محمد نور ضيف الله صاحب كتاب الطبقات التى جاء فيها ·

دع العين تبــكى دهــرها بتوجـد
على غيض بحـركان بالعلم مزبـدا

هو الحبر نجـــل الحبر ضيف الهنا
لقد حاز فخرا فى الانام وسؤددا

هو العالم المشهور والقلم والذى
يرشد الهادى الى ســبل الهدى

كريم طباع ثم سمح شـــمائل
باسلافه الماضين فى ذلك اقتدى

كذلك قصيدته فى رثاء الشيخ أحمد الطيب البشــير قطب الطريقة السمانية المتوفى عام ١٢٣٩ هـ/١٨٢٤ ·

ومطلعهـــا : ـ

---

(١) محمد عبد الرحيم ـ نفثات اليراع ص ٨٠ ·

عــرج بركبك حــادى الاظعان
واحطط رحــالك مبتغى العرفان

وله قصيدة أخرى فى رثاء كبــار العلماء ويبكى على سنار وعهدها حيث بدأها بقوله :

اليوم أصـــبح ركن الدين منهدما
بموت اخوانــا فى الله والعلما

ديــارنا بعـــدما كانت معمرة
منهم غدت مســكن الطاغين والظلما

كنا زمانا يجبنا الركب من بعد
الى العلوم وللقـــرآن والحكمــا

صرنا طعــاما بلا ملح يلذ به
تعافه أعين الرائى ومن طعمــا

كائنــا قط ما كان ببلدتنـــا
نقــرر العلم جهـــرا ليس منكتما

والدهـــر فى غفلة عنــا ويحسدنا
على الذى عندنا الجيران والخصــما

فمن الى العـــلم فى الآفـاق ينشره
ومن يقــوم بحـــكم الشرع ملتزما

الشيخ يحيى السلاوى :

ولد فى الخرطوم عام ١٨٤٦ وهو حفيد الشـــيخ أحمد الســــلاوى العالم المالكى الذى رافق اسماعيل باشا عندما فتح السودان عام ١٨٢١ وعين الشيخ أحمد قاضيا لقضاة السودان كما ذكرنا ٠

سافر الشيخ يحيى لمصر واشترك فى الثورة العرابية وله قصيدة يناصر فيها الثورة ويقال ان عرابى نفسه طلب من الشاعر أن ينظم قصيدة تطبع وتنشر فى القطر المصرى وفعلا نظمها بائية من ٩٩ بيتا وقد لقيت تلك القصيدة التى طبعت بماء الذهب رواجا عظيما فى مصر وبيعت كل نسخة منها فى شوارع القاهرة بجنيه ذهبا ٠

والقصـــيدة تدعو لمناصرة الثورة مستثيرة همم المصريين وحميتهم

ومثنية على كل من ناصر الثورة من رجال العلم وشيوخ الطرق الصوفية والتجار وغيرهم وقل ان تجد أديبا سودانيا لا يحفظ مطلعها .

تقول أبيات القصيدة :

شـغل العدى بتشتت الأحزاب
والله ناصرنا بسيف عرابى

والقطر فيه من الرجال كفاءة
للحادثات فهم اولو الالباب

وحمية الاسلام تقضى بالوفا
حتما على كل امرىء اواب

هيا بنا يا أهل مصر الى الرضا
والفوز فى العقبى بغير حساب

انتم اولو الهمم التى بسهامها
كم من عدو آب شر اياب

انتم ولاة المجد ارباب النهى
والحر يظهر عند صدم مصاب

لاتشغلنكم الحياة فانها
ذال لمن يرضى بهتك جناب

لقد درجت الجوانب والوقائع المصرية على النيل من السودانيين لتثبت ما أصابه السودان من تقدم يعزى الى سياسة محمد على باشا وأسرته فقد جاء فى افتتاحية الوقائع فى عددها الثانى عشر ١٢٤٤ هـ / ١٨٢٩ م تصف أهل السودان بانهم « خالون من العلم والعمل عارون من معرفة النفع والضر يضارعون الوحوش حالة » .

● متخرجو الأزهر في الثورة المهدية (١٨٨٥ – ١٨٩٨ م)

وتنتسب الى قائدها الامام محمد احمد المهدى وكان عالما سودانيا فقيها صوفيا متأثرا بالمتصوف الكبير محى الدين بن عربى وكان فى فترة شبابه ينوى الذهاب الى مصر لمواصلة الدراسة فى الازهر .

تفرد الامام المهدى بمذهب اجتهادى خاص فابطل العمل بالمذاهب الاربعة وامر باحراق كل الكتب الدينية ولم يبق غير القرآن والصحيحين واحياء علوم الدين للامام الغزالى وقال عن الائمة الاربعة : –

« جزاهم الله خيرا فهم رجال ونحن رجال لو أدركونا لاتبعونا ، ان مذهبنا الكتاب والسنة » .

كان القانون الذى ثارت عليه دولة المهدية هو الكتاب والسنة والمنشورات الدورية التى كان يصدرها الامام المهدى والتى كانت تعالج مسائل قانونية وفتاوى .

كانت منشورات الامام المهدى وخطبه تهاجم ما سماهم بالترك والمقصود بها الاوروبيون والاجانب الذين يحكمون بغير الشريعة الاسلامية ولم يقصد بها المصريين اطلاقا كما لم تكن ثورته وحروباته نزاعا بين السودانيين والمصريين بل كانت بين من آمن بمهديته ومن انكرها واتبع حكومة الترك وكانت أهدافه هى تخليص الشعبين السودانى والمصرى من ظلم الترك والافرنج الذين حكموا السودان ومصر .

كان المهدى كغيره من قادة المسلمين فى ذلك العصر – ابن عبد الوهاب ومحمد السنوسى وجمال الدين الأفغانى كان يرمى الى ايجاد

عالم اسلامى بعد أن يقضى على ما سمى بالجاهلية السوداء التى رانت عليه ولذلك لم تكن دعوة المهدى تقتصر على تحرير السودان بل مصر والبلاد الاسلامية من حكم الترك والعودة الى حكم الكتاب والسنة ٠

لقد جاءت دعوة المهدى مخالفة لما كان سايرا فى السودان ومصر ولخطورتها على الخلافة العثمانية والاستعمار فى مصر اصدر السلطان العثمانى نشرة رسمية كذب فيها المهدى ونشرها فى جميع البلاد الاسلامية كذلك رجال الدين فى مصر والسودان فقد اصدر الازهر فتوى ببطلان الدعوة ، هذا الى جانب نشرات ورسائل لبعض علماء الاسلام فى السودان اشرت اليها آنفا ٠

لم يكن هناك والحالة هذه اتصال بين السودان والازهر فى مدى الثلاثة عشر عاما من حكم المهدية ومع ذلك انضم الى الثورة المهدية فقهاء وعلماء سودانيون من متخرجى الازهر واسهموا فى نجاحها وشغلوا مناصب هامة خاصة فى القضاء الشرعى نذكر منهم :

القاضى احمد جبارة :

وهو من متخرجى الازهر بايع الامام المهدى قائد الثورة السودانية ضد الحكم التركى (١٨٨٢ ــ ١٨٩٨ م) وعين قاضيا للاسلام وهو أكبر منصب قضائى آنذاك قتل عام ١٨٨٢ عند حصار الامام المهدى لمدينة الابيض فى غرب السودان ٠

الشيخ الحسين ابراهيم الزهراء :

ولد عام ١٨٣٣ ٠

وهو من متخرجى الازهر الذين يشار اليهم بالبنان وكان عالما فقيها وشاعرا ويقال انه كان ندا للامام محمد عبده ــ عاد الى بلاده وأنشأ مدرسة فى قريته أم عضام فى الجزيرة ثم التحق بالامام محمد المهدى قائد الثورة المهدية وولى القضاء ثم أصبح قاضيا للاسلام فى السودان ولكنه عزل من منصبه ومات سجينا عام ١٨٩٢م ٠ وله قصيدة معروفة من مائة واثنى عشر بيتا يمدح فيها المهدى ويناشده ليولى مناصب الحكم للعلماء جاء فيها : ــ

برح الخفا ما الحق فيه خفاء
وتوالت الآيات والأنباء

جهــل الولاة أمات ديـن محمــد
وأهلوه قد ماتوا وهـم أحيــاء
وتراكمت ظلماتهــم بين الورى
لمـا اطمــأن لهــم ودام ولاء

مابى استهانوا بل بشرع محمد
فعليــه من أثـر الدمار حيـــاء
فتناولنـــه من اللئــام واعطه
صـــنف الكرام فاهله العلمـاء
واشرط عليهـــم ما اردت من الهدى
يعطوا العهــود لأنهــم أمنــــاء

ووقف مرة أمام ضريح سيدنا الحسين فى القاهرة وأنشد قصيدة يخاطبه فيها استهلها بقوله :

حسين يا حسين أتى اليــكم منيبــا
وأنتحــى الحسن والحســينا

الشيخ محمد البدوى :

هو متخرج فى الازهر ودرس على الشيخين العالمين المعروفين عليش وحسن العدوى وكان قاضيا فى المهدية (١٨٨٥ ـ ١٨٩٨ م) مارس القضاء بنزاهة وصدق وعين شيخا للعلماء فى عهد الحكم البريطانى وعندما توفى عام ١٩١١ م لم يخف الحاكم البريطانى سعادته بموته فقد كان يعتبره من المعوقين للسياسة البريطانية فى السودان ويصـــفه أحـد الأدباء (١) السودانيين النابهين بقوله : ـ

« كان الشيخ محمد البدوى من الائمة المنهجيين والعلماء المحافظين على التقاليد المذهبية فهو من مدرسة الشيخ عليش وأمثاله فلم تعرف عنه آراء تجديدية فى الفقه الاســلامى ترجع محدثات العصــر الى منابع التشريع الاصــلية واصــوله المرنة الثابتة كما فعل الامامان الجليــلان الافغانى ومحمد عبده ولكنه عرف بتحزبه لحرفية النصوص من فقه امام دار الهجرة مالك بن انس والحديث الشريف ولكنه امام عصره فقد تفقه عليه حفنة من العلماء وكانوا الشعلة التى ازاحت ظلمات الجهل فى ذلك

---

(١) عبد القادر الشيخ ادريس (أبو هالة) فى كتابه وقفات مع العباسى ص ١٠٣ .

العهد الجائر الجاهل وكانوا اللبنة الاولى لهذه المؤسسة العلمية الشامخة ـ المعهد العلمي ـ التي بدأت تشق طريقها في العهد الحديث وبفضل جهود علمائها المتصلة الى جامعة اسلامية » ٠

الشيخ المضوي عبد الرحمن :

ولد حوالى عام ١٨٥٧ م وهو من ذرية العالم الاسلامي المعروف الشيخ ادريس ود الارباب هاجر الى الازهر بعد ان درس على الشيخ الحسين الزهراء في الجزيرة ثم عاد الى البلاد فاقام مدرسة في كركوج في أعالي النيل الأزرق ثم التحق بالامام المهدي في قدير في غرب السودان واسهم في حصار الخرطوم ولكن بعد نجاح الثورة المهدية لم يرض على بعض أعمال الخليفة عبد اللهخليفة المهدي ورجع الى مصر ووصل دراسته في الازهر مرة أخرى حتى نال الشهادة العالمية ثم عاد بعد هزيمة المهدية وقيام الحكم البريطاني وعين قاضيا لمديرية دنقلا في شمال السودان ٠ وكان شاعرا واديبا مرموق المكانة ٠

توفي في قرية العليفون على النيل الازرق عام ١٨٩٩ وكان عالما اديبا رشح لأن يكون قاضيا لقضاة السودان غير ان الاتفاق قد تم بين بريطانيا ومصر بأن يشغل ذلك المنصب قاض مصري وفعلا استمر القضاة المصريون في ذلك المنصب عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٤٧ م حيث تولاه قضاة سودانيون ٠

الشيخ محمد عمر البنا :

ولد عام ١٨٤٨ وبعد ان حفظ القرآن نزح الى الازهر حيث تخرج فيه وعندما عاد الى السودان انخرط في سلك الثورة المهدية وبايع المهدي ، وشغل منصبا قضائيا ومستشارا للخليفة عبد الله ٠ وعندما هزمت المهدية عين مفتشا للمحاكم الشرعية في فترة الحكم البريطاني وتوفي عام ١٩١٩ م وهو شاعر مطبوع وله قصيدة مشهورة خاطب بها ثوار المهدية بعد هزيمة جيش هكس البريطاني في غرب السودان في توفمبر عام ١٨٨٣ وصف فيها شجاعة المحاربين واستحثهم للزحف على الخرطوم عاصمة الحكم التركي حيث يقبع غردون الحاكم البريطاني باسم الخديوي وقد جرت القصيدة على كل لسان وجاء فيها :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت في شأن الاله حياة
أن الجهاد فضيلة مرضية شهدت بمحكم أجرها الآيات

قوم اذا حمى الوطيس رأيتهم ... شم الجبال وللضعيف حماة
ولباسهم سرد الحديد وبأسهم ... شهدت به يوم اللقاء الغارات
فى السلم تراهم ركعا سجدا ... أثر السجود عليهم وسمات
وتخالهم يوم اللقاء ضراغما ... أسدا وأسل رماحهم غابات
ياسيدا وسع الانام بحلمه ... واستمطرتهم بالهدى بركات
فانهض الى الخرطوم ان بسوحه ... أهل الغواية والمفاسد باتوا
نبذوا الشريعة من وراء ظهورهم ... عن دينهم شغلتهم الشهوات
خذ جيشك المنصور لاتحفل بهم ... ولتقدمن أمامه الرايات
فتسوروا لهم الخنادق وافعلوا ... فعل الصحابة اذ أتت غزوات

الشيخ اسماعيل عبد القادر الكردفانى :

وهو حفيد الشيخ اسماعيل الولى فى كردفان وقد التحق بالأزهر وهو طالب صغير اذ رافق خاله الشيخ أحمد الأزهرى الى هناك حيث اتم تعليمه ومنحه علماء الأزهر اجازات علمية تشهد بنبوغه ومنهم العلامة المصرى حسن الطويل كبير علماء الازهر آنذاك .

تولى الشيخ اسماعيل التدريس فى الأزهر وقتا ثم عاد الى البلاد وعين مفتيا لديار كردفان وكان يقوم بالتدريس أيضا بجانب وظيفته فى القضاء وقد تخرج على يديه علماء كثيرون وكان أديبا وشاعرا نال الجائزة الأولى فى مسابقة شعرية نظمتها مجلة الجوائب المصرية وعندما قامت الثورة المهدية وحكومتها فى السودان (١٨٨٢ ـ ١٨٩٨ م) التحق بالمهدى وعمل فى سلك القضاء وله مؤلف فى تاريخ المهدى سماه « سعادة المستهدى بسيرة المهدى » حققه العلامة السودانى الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم وكتب له مقدمة ضافية ووصف الكتاب بانه مصدر هام من مصادر تاريخ المهدية . كما سبق لمؤرخ عربى ان اعتبر الشيخ اسماعيل بمنزلة ابن الاثير وأبى الفدا وابن خلدون والمقريزى ـ لقد توفى الشيخ اسماعيل سجينا فى منفاه فى جنوب السودان . ومن شعر الشيخ اسماعيل قصيدة انشدها عام ١٣٠٥ هـ / ١٨٨٧ يرثى الامام المهدى ويصف القبة التى دفن فيها المهدى جاء فى القصيدة :

سمت قبة المهدى مجدا وسؤددا ... ونيطت بها الجوزاء عقد منضدا
وقد نظم زهر النجوم قلائدا ... لجيد علاها حاز السبق مفردا
ولاحت بانوار الهداية شمسها ... فاشرق منها للكون وانقشع الردى

فلله مغناها ومجـــكم صنعها — وروضتها الزهراء بالفضل والندى
ولم لا وقد ضمت لافضـل وارث — لخير الورى طه المشفع أحمـــدا
خلاصة صفو المجد من آل هاشم — وأفضل من في الخير راح أو اغتدى
امام له فى كل مجـد وسـؤود — مآثر فضــــل ما أجــل وامجدا
محمـد المهدى بشرى محمـد — شفيع الورى في الحشر من طاب محتدا
به الله أحيـــانا وأظهـر دينـه — وأولاه أفضــالا ونصرا مؤيــدا
وقد أحرز الدين الحنيفى بالظبا — ودمر جبـارا طغى وتمـردا
ولما دعـاه الله جــل جــلاله — لدار بهـا الفوز العظيم مخـلدا
أجاب النـدا فالقلب بعد فراقه — يذوب أسى والصبر عز وأبعدا

الشيخ ابراهيم شريف الدولابى :

وهو من أسرة الدواليب المعروفة فى كردفان فى غرب السودان درس على جده ود دوليب ثم هاجر الى مصر والتحق بالأزهر ولما عاد الى السودان كانت الثورة المهدية قد نشبت ضـد الحكم التركى فرافق المهدى الى الأبيض عاصمة كردفان عام ١٨٨٢ م ٠ وكان شاعرا أيضا وقد رثا المهدى بقصيدة جاء فيها :

كيف التئام فـؤادى المفطـور — ورفوء دمع محاجرى المفجـور
أم كيف ينفك الضنى عن مهجة — أحشاؤها تصـلى عـلى تنور
أسف على المهدى من مهد الصبـا — قد كان معصوما عن المحظـور
لا زال في كنف العناية يفتـدى — بدقائق التبصير والتنويـر
حتى انتهى لمقامه الأعـلى الذى — عنه النهى فى حيـرة وقصـور
وأقامه المختـار عنه خليفـة — خلعت عليه مـلابس من نـور
ورقى الى كـرسيه متسـنما — فى مشهد بالأوليا معمـور
تاقت الى الذات العلية روحـه — وسعت لمقصد صدقها المذخور
فمضى وأودع كـل قلب حسرة — وحشـا الحشى ببلابل وسعير
تبكى المساجد والمحارب فقـده — ومواطن الاذكار والتـذكير

وعين قاضيا شرعيا فى عهد الحكم البريطانى على السودان وعضوا فى مشيخة العلماء ٠

الشيخ عمر الأزهرى :

ولد عام ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م فى قرية الصوفى بالقرب من مدينة القضارف فى شرق السودان حيث حفظ القرآن ودرس قدرا من الفقه

واللغة العربية ثم رحل الى مصر للدراسة فى الأزهر وعندما عاد قام بتدريس مواطنيه وكان شاعرا وله قصيدة نالت احدى جوائز مجلة الجوائب التى كان يصدرها أحمد فارس الشدياق فى الاستانة ثم نقلت الى القاهرة وكان مطلعها :

سلوا عن فؤادى مسيلات الذوائب　　　فقد ضاع من بين القلوب الدوائب
فلا سلمت نفس من الحب قد خلت　　　ولا كان جفن دمعه غير ساكب

عين قاضيا فى المهدية وكذلك فى عهد الحكم البريطانى فى السودان وتوفى عام ١٩١٥ م وهو والد الشيخ الصديق الازهرى العالم العامل المعروف فى مدينة رفاعة عاصمة مديرية الجزيرة .

● فقهاء متصوفون

سلك أغلب الرواد السودانيين من متخرجى الازهر ان لم يكونوا كلهم طريق التصوف متأثرين بأساتذتهم فى الازهر وبمن درسوا مؤلفاتهم من الفقهاء - والمتصوفين · لم يكن طريق الصوفية فى بادىء أمرهم سهلا معبدا فقد تصدى لهم الفقهاء وقام الخلاف بينهما حتى اضحى عداء مستحكما وصفه العلامة أحمد أمين بنكبة النكبات ومصيبة كبرى ولقى المتصوفون أذى وحربا عنيفة الى أن انتصر لهم الامام الغزالى فى أواخر القرن الخامس الهجرى بكتابه احياء علوم الدين واستطاع أن يسلك طريقا حبب الفقهاء وأهل السنة فى التصوف حيث دعا للمحافظة على الشريعة الظاهرة مدعمة بالنية الحسنة وتطهير الظاهر كتطهير الباطن - لقد كان للامام الغزالى فضل فى ازالة العداء بين الفقهاء والصوفية وهذا يعتبر نقطة تحول كبرى فى تاريخ الفكر الاسلامى ·

وقامت الطرق الصوفية بعد موت الغزالى ١٠٥٩ - ١١١١ م وانتشرت بدرجة كبرى مستمدة قوتها من اتجاهاته ونزعته السنية وأسست زواياها وروابطها ومراكز العلم فى البلاد الاسلامية كما فعل هو نفسه فى بلاده ·

كانت الطريقتان الصوفيتان اللتان تسيطران على المجتمع الاسلامى آنذاك هى القادرية (الجيلانية) وتنتسب الى الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى عام ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م والمدفون فى بغداد ، لقد كان فقيهـا درس عليه تلاميذه التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول

والنحو وكان يفتي على مذهبي الشافعي وابن حنبل وكانت فتواه تعرض على الفقهاء في بغداد فتعجبهم كل الاعجاب ٠

والطريقة الثانية هي الشاذليـــة وتنسب الى الشيخ أبي الحسن الشاذلي الذي توفي في صحراء عيذاب عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وهو في طريقه الى الحج ، كان الشيخ الشاذلي فقيها مالكيا اشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها كتابة وسنة وتفسيرا وكان يخاطب أتباعه بقوله :

« اذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك ان الله تعالى قد ضمن له العظمة في الكتـــاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة » ٠

لقد كان المجتمع المصري يعج بالفقهاء المتصوفين في عهدي المماليك (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م الى ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م آل عثمان ٩٢٢ هـ / ١٥١٧ م الى ١٢٥٠ هـ / ١٨٠٥ ومن قبيـل المثال نذكـر بعضا من النابهين(١) منهم ممن كان لهم أثر على المجتمع المصري والسوداني فيما بعد وهم الشيوخ :

	تاريخ الوفـــــاة
عز الدين عبد السلام ويسمى بسلطان العلماء	٦٦٠ هـ/١٢٦٢م
محي الدين النووي	٦٧٦ هـ/١٢٧٧م
الامام البيوصري صاحب البردة	٦٩٤ هـ/١٢٩٥م
ابن عطاء الله السكندري	٧٠٧ هـ/١٣٠٨م
تقي الدين السبكي	٧٥٦ هـ/١٣٥٥م
سراج الدين أبو حفصى عمر الملقن	٨٠٤هـ/١٤٠٢م
السراج البلقيني ويعتبر عالم المائة الثامنة	٨٠٥ هـ/١٤٠٣م
شهاب الدين بن حجر العسقلاني	٨٥٢ هـ/١٤٤٨م
بدر الدين العيني	٨٥٥ هـ/١٤٥١م
جلال الدين السيوطي	٩٠٥ هـ/١٥٠٠م
عبد الوهاب الشعراني	٩٧٣هـ/١٥٦٦م
ابراهيم اللقاني	١٠٤٠هـ/١٦٣١م
أبو عبد الله الخرشي أول شيخ للازهر	١١٠١هـ/١٦٩٠م

(١) راجع جمهرة الأولياء ــ الجزء الثاني للسيد محمود أبو الفيض وكذلك عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث تاليف محمود رزق سليم ٠

وكان هؤلاء جميعهم فقهاء متصوفين . أما أهم الفقهاء الصوفيين(١) الذين درس عليهم أولئك الرواد من متخرجي الازهر أبان الحكم العثماني وتأثروا بهم وحذوا حذوهم عند عدد منهم لبلادهم فهم :

	تاريخ الوفـــاة
الشيخ زكريا الانصاری ويعتبر خاتمة فقهاء العصر المملوكي	٩٢٥ هـ/١٥١٩م
شمس الدين اللقاني	ــــــ
ناصر الدين اللقاني	ــــــ
عبد الرحمن الاجهوری	ــــــ
محمد البنوفری	٩٩٨ هـ/١٥٩٠م
أحمد محمد العدوی الملقب بالدردير كان شيخا للمالكية ويوصف بانه امام وقته وعصره	١٢٠١هـ/١٧٨٦م
الشيخ الامير	١٢٣٢هـ/١٨١٧م

وهناك فقهاء متصوفون درس عليهم السودانيون فی الازهر فی العصر الحديث الذی تلا الحكم العثمانی نذكر منهم مفتی المالكية الشيخ محمد عليش والشيخ ابراهيم الباجوری شيخ الازهر ومصطفى الحصاوی وغيرهم .

لقد كان أولئك الرواد كأساتذتهم فی الازهر فقهاء صوفيين يتبعون للطريقة الشاذلية أساسا ويروى أن الطريقة الشاذلية كانت أول طريقة دخلت السودان على يد الشريف حمد أبی دنانه صهر محمد بن سليمان الجزولی داعية الطريقة الشاذلية فی المغرب والمتوفی (من حوالی ١٤٦٥ م) وذلك قبل قيام سلطنة سنار الاسلامية ١٥٠٤ م وهی بذلك قد سبقت الطريقة القادرية (الجيلانية) التی دخلت السودان على يد الشيخ تاج الدين البهاری الذی قدم السودان فی حوالی ٩٨٥ هـ /١٥٧٧م .

ويقينی أن الطريقة الشاذلية انتشرت فی السودان أساسا بفضل أولئك الرواد من الفقهاء الذين درسوا فی الازهر واذا رجعنا الى كتاب

---

(١) راجع جمهرة الأولياء الجزء الثانی للسيد محمود أبو الفيض وكذلك عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث تاليف محمود رزق سليم .

طبقات ود ضيف الله لوجدنا في سير كثير من الفقهاء ما يدل على انهم كانوا ينتسبون الى الطريقة الشاذلية · ومهما يكن من أمر ، فقد عرف عن الطريقتين الشاذلية والقادرية (الجيلانية) أنهما تسيران على هدى الكتاب والسنة ولهذا كان أثر أولئك الرواد الفقهاء المتصوفين واضحا على المواطنين اذ انهم ارسوا قواعد التصوف الشيء الذى تدعو له الشاذلية والقادرية وكانوا بذلك واضعي هذا التقليد السليم الذى لم يدع مجالا للشعوذة أو النصب والعداء بين الفقهاء والمتصوفين كما هو الحال في بعض البلاد الاسلامية ·

لقد أنشأ الشيخ محمود العركي عدة مدارس على النيل الأبيض في النصف الأول من القرن السادس عشر على غرار الزوايا والروابط التي يقيمها المتصوفون حتى اضحى النيل الأبيض كعبة لطلاب العلم والدرس ولكنها دمرت جميعها في عام ١٦٨٤ على يد قبائل الشلوك الجنوبية والشيخ محمود كان أول سوداني تذكره الوثائق درس في الازهر على نحو ما ذكرنا وكان فقيها صوفيا وقد درس على أساتذة صوفيين في الازهر · كذلك كان أولاد جابر أقطابا وأولياء وهذه هي الغاية الصوفية ولعل الاجازة التي منحها الشيخ عبد الرحمن بن جابر لتلميذه ابراهيم ولد رابعة وما حوته من نعوت والقاب تشير بوضوح الى الأثر الصوفي والطريق الذى كان يسلكه الشيخ عبد الرحمن وما كان يطلبه من تلميذه أن يكون مربيا للمريدين وقدوة للمسترشدين وملجأ للفقراء والمساكين ·

انني لا أشك مطلقا بان الشيوخ الفقهاء محمود العركي وأولاد جابر كانوا صوفيين ينتسبون الى الطريقة الشاذلية على نحو ما كان عليه أساتذتهم في الازهر ·

كذلك كان الشيخ عبد الله العركي (١٥٧٠ م) شيخ الطريقة القادرية (الجيلانية) في السودان وعميد أسرة العركيين المعروفة في الجزيرة في الاقليم الأوسط عالما صوفيا وكان ينشر للطريقة القادرية بروح العالم الفقيه وكان ينادى في قومه واتباعه ويحذرهم الا يخوضوا في مسائل التصوف دون دراية الا بعد أن ينالوا قدرا كبيرا من العلم وكان يتخذ لنفسه طريقا مرضيا لأهل الفقه والتصوف اذ كان ينأى بنفسه عن شطحات بعض المتصوفين ويعتبر الشيخ عبد الله العركي أحد الذين أرسوا قواعد التصوف السني ونجد أثر ذلك الاتجاه عند قومه العركيين المتصوفين اذ يشترطون على اتباعهم ان من لا يحفظ مختصر

خليل عن ظهر قلب لا يولى شياخة الطريقة القادرية · والشيخ عبد الله سافر الى الحجاز وأخذ يدرس للطلاب فى مقام الامام مالك عـدة سنين ثم عاد الى بلاده بناء على رغبة أهله ، لم تقف رسالة هذه البيوتات الدينية على نشر الاسلام وتعليم الناس أمور دينهم بل كانوا موئلا للفقـــراء والضعفاء وكان يستجير بهم الناس وقت الشدة والضيق كما عملوا على توحيد الناس وتآلفهم وأصبح كل فرد فى الطريقة أخا للآخر مما أضعف الرابطة القبلية الهمجية التى أثرت على العلاقات بين الناس ،وقللت من حدة الصراع والخلاف بين القبائل فيما بينها وربطت الناس على أسس دينية قومية أوسع وأشمل من القبيلة ·

ولكن ران على السودان فى أواخر عهد سلطنة سنار جـــو من الاضطراب والفوضى فنشبت الحروبات والغارات القبلية وانفرط عقـد الأمن وأصبح الطريق الى مصر وعرا لا يأمن المسافر فيه على نفسه وسدت بذلك أمام المواطنين منافذ الهواء النقى الصالح الذى يأتيها من مصر ومع ما نتج من حالة البؤس والفقر تفشى الدجل والشعوذة ·

ورغما عن ذلك ووسط ذلك الجو المضطرب كانت مدارس العـلم التى انشأها أولاد جابر أولئك الرواد من متخرجى الازهر تقوم بدورها خير قيام وقد شهد بذلك الرحالة السويسرى بوركهاردت(١) (١٧٨٤ ــ ١٨١٧) الذى زار السودان عام ١٩١٣ ولاحظ كيف كان الاهالى فى منطقة الشايقية يقبلون على تلك المدارس وكانوا يدرسون فيها العلوم الدينية والرياضيات والفلك كما لاحظ أن كثيرا من أبناء القبائل المجاورة يفدون الى تلك المدارس حيث يقضون فيها هناك عشر سنوات أو أكثر فى تحصيل العلم ويقوم المواطنون هناك بايوائهم واطعامهم كما لاحظ ما كان يلقاه العلماء من احترام وتجلة من مواطنيهم وان كثيرا من الأهالى يعرفون القراءة والكتابة ·

كذلك لاحظ عندما سافر جنوبا الى بربر والدامر ان طلابا كثيرين من دارفور وكردفان وسنار يقصدونها لتلقى العلم فى مدارسها وتوسع فى ملاحظاته عن الدامر حيث(٢) أعجب بمعاملة أهلها ونظامهم وطباعهم ووصف الدامر بأنها بلدة نظيفة ذات شوارع منظمة يسودها الأمـــن والطمأنينة ولم يحاول أحد أن يجبى منه اتاوة أو أن يرهقه فى بيع أو

---

(١) محمد عمر بشير ــ تطور التعليم فى السودان ص ٣٣ ·

(٢) عبد المجيد عابدين ــ تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٦٢ ·

شراء ورأى البلدة يسودها جو من التقوى والصلاح وعلم أن الفضل فى ذلك يرجع الى أن الرئاسة والسيادة فى الدامر لرجـــال الدين الذين ينتمون جميعا الى أسرة المجاذيب نسبة الى الشيخ حمد بن محمد المجذوب. وكان علماء المجاذيب قد تلقوا تعليمهم اما فى الازهر أو مـــكة وهم ينتسبون الى الطريقة الشاذلية المجذوبية .

وكذلك كانت بقية الخلاوى والمدارس فى توتى والعليفون والجزيرة والنيل الأبيض حيث كان على رأسها علماء متصوفون ينشئونها عـــلى نفقتهم أو يشترك معهم فى الانفاق عليها أهل البلدة جميعا ولذلك لم يكن التعليم الدينى فى السودان منذ عهد سلطنتى سنار ودارفور الى العهد التركى والى ما بعد ذلك تحت اشراف السلطة الحاكمة أو أى ادارة نظامية وانما كان يقوم به الفقهاء أو الجماعات تطوعا واحسانا واكتفى سلاطين سنار وولاة العهد التركى من بعدهم بتقديم بعض مـــن التسهيلات واقطاع الفقهاء اقطاعيات لهم للمعيشة والمأوى .

وعندما قامت المهدية (١٨٨٥ ــ ١٨٩٨) أحرقت الكتب ولم تبق الا على القرآن والصحيحين واحياء علوم الدين للغزالى وكتب الشعرانى وتفسير البيضاوى والجلال السيوطى وابطلت بطبيعة الحـال الطـرق الصوفية .

وعلى الرغم من أن فترة المهدية كانت فترة حروب وجهاد الا أن خليفة المهدى عبد الله شدد على الناس لحفظ القرآن أو ذلك القدر من سورة ما يؤدون بها الصلاة وعكف الناس على القراءة والكتـــابة وحفظ القرآن حيث كان الجد يدرس مع حفيده والولد مـــع أبيه وانتشرت مدارس القرآن فى كل انحاء البلاد وبلغ عددها فى أم درمان عاصمـــة البلاد وحدها آنذاك ثمانمائة (١) .

وعندما سقطت دولة المهدية فى عام ١٨٩٨ واستتب الأمر لبريطانيا أعادت الطرق الصوفية الى ما كانت عليه وشجعت قيامها مثل ما فعل محمد على باشا قبل ذلك فقد شجع بعضا من الطرق الصوفية للنزوح الى السودان كالطريقة السعدية والرحمانية والبرهانية . وأخذت تقضى

---

(١) م. عمر بشير ــ تطور التعليم فى السودان ــ ص ٥٥ .

رويدا رويدا على نظام الخلاوى والمدارس الدينية باعتبارها مؤسسات تدعو للتعصب الدينى وحلت محلها الكتاتيب والمدارس النظامية والتى لم يقبل الطلاب عليها فى بادىء الأمر بل كانوا ينظرون اليها كمراكز للتبشير وكان بعض من الأهالى يرفضون فتح مدرسة فى بلدتهم بل يعتبرونها كنيسة (١) لا مدرسة ونسوق مثالا لذلك أهالى جزيرة مقرات فى شمال السودان ٠

---

(١) نفس المصدر ـ ص ٨٣ ٠

❁ المرأة السودانية
والتعليم الدينى قديما

أما عن تعليم المرأة فقد حرص أولئك الرواد من علماء السودان على تعليم البنت أسـوة بالولد وكانت خـلاوى القرآن فى الشمال والجزيرة وسواكن وأرض البجا وكردفان ودارفور تجمع بين البنت والولد تعليما مختلطا ويروى أن أكثر تلاميذ العالم السودانى الشيخ حمد بن محمد بن على المشيخى المعروف بود أم مريوم (١) (١٠٥٥ هـ ـ ١٦٤٥ م) والمتوفى ١١٤٢ هـ ـ ١٧٣٠ م ـ من النساء حيث ان اتباعه يذكرون فى مدحه انه علم نساء قبيلة فزارة وجعل منهن عالمات وفقيهات فى الدين ٠ وكان فى مقدمة الدارسين أولاد وبنات أولئك العلماء حيث نجد كل نساء البيوتات الدينية يحفظن قدرا من القرآن ان لم يكن كله ويعرفن شئون دينهن معرفة تامة ومنهن من تعمقت فيه وظل هذا التقليد معمولا به منذ ذلك العهد ٠

ويسجل التاريخ أسماء نساء كثيرات فتحن المدارس وأخذ العلم عليهن كثير من الناشئة بنين وبنات ونسوق مثالا لذلك :

فاطمة بنت جابر أخت أولاد جابر العلماء الأربعة الذين درسوا فى الأزهر والذين كان لهم أثر واضح فى الحياة الدينية فى السودان كما ذكرنا آنفا فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى وتوصف فاطمة هـذه بأنها كانت نظيرة لأخوتها فى العلم والدين وقد حفظت القرآن وعمرها اثنتا عشرة سنة وكانت تقوم بتعليم الصبيان فى مسجدها بالدفار فى دنقلا

---

(١) ود ضيف الله ـ الطبقات ـ ص ٦٧ ٠

وتنفق عليهم من مالها وقد ولدت العــالم السوداني محمد بن سرحان المعروف بصـــغيرون والذى هاجر من دنقلا جنوبا فأنشأ مدينة علمية بالقرب من شـندى عرفت بقوز العـلم والتى أصـبحت منارة للعلوم الاسـلامية فى منطقة الجعليين كذلك كانت بنتهـا آمنة وكانت عالمـة كأمها كما كانت لآمنة ابنة عالمة أيضا اسمها قوته وكلهن مارسن تعليم الصبيان والبنات وتخرج على أيديهن من ذريتهن علماء نابهون نهضوا برسالة العلم فى دنقلا وشندى واقليم الجزيرة ٠

وهناك أيضا عائشة بنت محمد القدال بن ابراهيم المعروف بالغرضى وقد درس جدها الغرضى على عبد الرحمن حمدتو الذى درس فى الأزهر على الشيخ البنوفرى ٠ وكان والدها وجدها عالمين يشار اليهما بالبنان ٠

لقد كانت لعائشة هذه مدرسة على النيل الأبيض لتعليم الصبيان بناتا وأولادا ومن بين من درس عليها الشيخ خوجلى العـالم السودانى المعروف المتوفى عام ١١٥٥ هـ ـ ١٧٤٢ م والذى ورد ذكره وذكر أبيه الشيخ عبد الرحمن الذى درس على الشيخ على الاجهورى فى مصر ٠

ونذكر أيضا بتول الغبشة (١) والدة الشيخ هجو وأخت الشيخ يعقوب جد أسرة اليعقوباب المشهورة بالعلم والتصوف وهو تلميذ الشيخ عبد الرحمن بن جـابر الذى درس فى الأزهر على الشـيخ البنوفرى وكانت لها مدرستها الخاصة بها فى سنار لتعليم الصبيان وعرف عنهـا حفظها للقرآن وتجويده كما كانت ناسـخة ماهرة للكتب ممـا زاد من شهرتها وعلو صيتها وكان فى البلاد علماء وبيوتات تضطلع بمهمة نسخ الكتب بغرض البيع أو التبرك ٠

كما ظهر نساء أخريات فى أوقات متفاوتة نذكر منهن أمونة (٢) بنت عبود فى دنقلا التى تحدث عنها العلامة رفاعة رافع الطهطاوى وذكر أنها كانت تقوم باقراء القرآن الشريف والمتون وادارة مكتبين احدهما للغلمان والثانى للبنات وكانت تنفق من كسبهـا بغزل القطن وتشـغيله وكان منزلها كالتكية للفقراء والقاصدين بيت الله الحرام ٠

وكان فى قرية شركيله فى كردفان سيدتان هما عائشة (٣) وآمنة ـ

---

(١) من مقال للاستاذ الطيب محمد الطيب ـ نساء سودانيات شـاركن فى صنع التاريخ ـ الكواكب المصرية ٠

(٢) و (٣) د٠ عبد العزيز عبد المجيد ـ التربية فى السودان جـ ٢ ص ٥٦ ٠

انقطعتا لتعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم فى مسجد انشأتاه خصيصا لهذا الغرض ٠

وفى قرية البشاقرة غرب على بعد حوالى ٥٠ ميلا جنوب الخرطوم كان بعض نساء القرية يعلمن الناشئة القرآن الكريم وقد نبغت منهن الجاز بنت اسماعيل حفيدة الفقيه محمد راد الله متخرج الأزهر وهو حفيد الشيخ العالم أرباب بن عون المعروف بأرباب العقائد مؤسس مدينة الخرطوم وكانت تحفظ القرآن ومختصر خليل وتقرأ للفقيه المحدث التابع ابن سيرين ٠

وكانت هناك فى أرض الحلاوين بالجزيرة أم كلثوم بنت القرشى ابنة القرشى ولد الزين شيخ الامام المهدى وكانت تقيم داخلية لايواء البنات الطالبات حيث لا تغادر البنت الداخلية الا بعد ان تحفظ القرآن ٠

لقد ازدهرت خلاوى القرآن على طول السودان الشمالى وعرضه وكان للنساء نصيب كبير فى نشر العلم فى ربوع البلاد كما ذكرنا وما يجدر ذكره ان مدارس القرآن فى السودان عرفت التعليم المختلط منذ عهد بعيد فقد كان الصبيان ــ بنين وبنات ــ يدرسون جنبا الى جنب ثم يتفرقون بعد ذلك لمواصلة التعليم عندما يبلغون سن المراهقة ٠

● الشعر السودانى

١ ـ فى عهد سلطنة سنار :

بدأ الشعر العربى فى السودان صوفى النزعة والاتجاه فقد كان ذلك « الشعر (١) فى بواكيره وليد بيئة صوفية متدينة ذات حظ غير كبير من التنوع الثقافى » وكانت تتغلب عليه اللغة العامية ولكنه فى مضمونه اكتملت فيه كل عناصر الشعر الصوفى من حيث المديح فى الرسول ووصف مناقبه ومكارم أخلاقه وغزواته والدعوة الى الزهد والتقشف والتحلى بالأخلاق الحميدة وكان شعراء ذلك العهد ـ عهد سلطنة سنار ـ هم رجال الدين والتصوف أنفسهم ومهما يكن من شىء « فأدباء (٢) الصوفية هم الذين رحموا تاريخ الأدب العربى من تلك الوصمة وصمة التزلف بالمديح الى الملوك والرؤساء والأمراء ·· وهم الذين جعلوا السلامة من باب السلطان كالسلامة من باب الطبيب وكانت عندهم سلامة الأرواح فوق سلامة الأبدان ··· وهم الذين عطروا الأدب العربى بأريج الكرامة والعزة والصيانة والعفاف وهم الذين وصلوا المشرق بالمغرب وحفظوا الاسلام باذاعة المعانى الروحية والذوقية ·· » ·

ولم يبق لنا من شعر ذلك العهد الشىء الكثير الا قصيدة العالم الصوفى الشيخ فرح ود تكتوك المتوفى عام ١١٤٧هـ / ١٧٣٤ م والتى تحمل نفس تلك المعانى السامية التى تبعد الناس عن التزلف والتمسح بالسلاطين وقد بدأها بقوله :

---

(١) د· احسان عباس ـ الشعر السودانى ـ نظرة تقييمية نقلا عن أصول الشعر السودانى ـ عبد الهادى صديق ص ٨٠ ·

(٢) نقلا عن التصوف الاسلامى ، د· زكى مبارك جـ ١ ص ٣٣٨ ·

يا واقفا عند أبواب السلاطين ارفق بنفسك من هم وتحزين
تأتي بنفسك فى ذل ومسكنة وكسر نفس وتخفيض وتهوين
اذا كنت تطلب عزا لا فناء له فلا تقف عند أبواب السلاطين

ثم أخذ شعر المديح يرتقى وتغلب عليه العامية فى آخر العهد التركى والمهدية وظهر شعراء نوابغ مثل قدوره وود تميم واب كساوى وحاج الماحى وود سعد واب شريعه وغيرهم وكانت مدائحهم حافلة بالمفردات والكلمة المعبرة والمادة التاريخية والفقهية مما يبرهن على علو كعبهم فى العلم والدين والتاريخ الاسلامى كمن سبقوهم فى هذا المضمار ابن الفارض والنابلسى والبرعى .

٢ ـ فى العهد التركى

أما الشعر فى العهد التركى فيمثل بداية لمرحلة جديدة لشعر عربى فصيح ذى اتجاه دينى صوفى ينصرف فى الغالب الى المديح النبوى وشعراء هذه الفترة من العلماء الذين تلقوا تعليمهم فى الازهر الشريف وعادوا الى السودان للعمل بالتدريس والقضاء الشرعى . لقد كانت بداية الشعر العربى الفصيح فى السودان على يد هذه الفئة من العلماء الذين تلقوا تعليما دينيا ولغويا فى الازهر ويؤرخ أحد الأدباء(١) السودانيين ان بداية الشعر الفصيح تلك تقع ما بين عام ١٨٦٠ الى بداية الحرب العالمية الأولى أى بعد أربعين سنة من قيام الحكم التركى فى السودان ولم تكن اللغة العربية حتى ذلك الوقت لغة مصر الرسمية الى أن أصدر الخديوى اسماعيل قرارا بأن تصبح اللغة العربية لغة البلاد الرسمية بدلا من اللغة التركية فى شوال ١٢٨١ هـ / ١٨٧٠ م وقد كان هذا القرار ذا مغزى سياسى فى مصر والسودان بل والعالم العربى من الوجهتين الأدبية والاجتماعية وفتح منافذ للغة العربية لتنمو وتنتشر .

لقد علق أحد الأدباء السودانيين على الشعر فى العهد التركى بقوله :

« فشعر(٢) العلماء اذن وهو بداية الشعر الفصيح فى السودان لم يكن تطورا طبيعيا للشعر الشعبى شعر البطولة والفروسية الى التعبير

---

(١) د. محمد ابراهيم الشوش ـ الشعر الحديث فى السودان .
(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

باللغة الفصحى وانما هو شعر أفراد قلائل هيأت لهم ظـروفهم الفردية اتصالا بالخارج وتعليما ازهريا دينيا مكنهم كل ذلك من نظم هذا الشعر وهو شعر فقهى وليس فيه من مظاهر القومية الا تلك المسحة الصوفية التى أشرنا اليها ... » .

ان الشعر (١) السياسى فى هذه الحقبة قليل ومع قلته يصـــور الأحداث المثيرة داخل السودان ولكنه أعرب الى حد ما عن رضاء العلماء من الحكومة وشاطر مصر الشقيقة فى ثورتها العرابية فوضع اللبنـــة الأولى للكفاح المشترك بين الشعبين السودانى والمصرى وهذا الشعـــر القليل يحمل خصائص لم يعرفها شعرنا من قبل .

لقد ارتفع (٢) الشعر فى ذلك العهد فى مستواه عن شعر سلطنة سنار اذ تحققت فيه لحد كبير سلامة اللغة وصحت التراكيب وارتقى عن اسبقه من حيث العبارة والفكرة واتسم فى مجمله باستقامة الموسيقى وان لم يخل من اضطراب .

الشعر فى المهدية :

تطور الشعر فى هذه الفترة الوجيزة وكان أبرز شعرائها هم من متخرجى الازهر الذين وردت اسماؤهم آنفا فى دراستنا عن سيـــرهم وقد ذكرنا نماذج من أشعارهم لتلقى ضوءا على ما كان عليه الشـــعر آنذاك حيث كان بطبيعة الحال شعر حرب وثورة وحماسة وبطولة ومدح للمهدى وقواده وظهرت شخصية الشاعر السودانى مستقلة متفردة ولعله من المناسب ان نذكر هنا أبياتا من قصيدة للعالم السودانى الشـــيخ محمد الطاهر المجذوب وهو من أسرة المجاذيب ذات الأثر الـــكبير فى السودان لذيوع صيتها آنذاك ولأنها تصف بعضا من معارك الثـــورة المهـــدية فى هنـــدوب وهشيم وسواكن فى شرق الســـودان وتتغنى بانتصاراتهم على الجيش البريطانى ويقال انه ارتجلها ارتجالا .

---

(١) محمد محمد على — الشعر السودانى فى المعارك السياسية ٩٨ .

(٢) عز الدين الأمين — تراث الشعر السودانى ص ٧٦ .

هندوب تعرف صبرنا ... كيف ارتكبنا للمصاعب
وهشيم تشهد عزمنا ... كيف أدرعنا للمصائب
يا طالما صدنا بها ... صيد الغضنفر للثعالب
جيشا يرن سلاحه ... كالرعد اذا ما ؟ المزن صائب
وسواكن تدرى بنا ... انا لدى الهيجا نضارب
بالمشرفى كأنه ... وقع الصواعق فى المضارب
زمنا رصدنا نحوها ... نبدى العجائب والغرائب
وتئز فى أرجائها ... كالليث اذ نشب المخالب
ولطالما برزت لنا ... منها العساكر والكتائب
من كل فج يمنة ... بل يسرة من كل جانب
فتجاذبتهم خيلنا ... ترمى بهم رمى الثواقب
والبيض تلعب فيهم ... فوق العمائم والعصائب
حتى أتت أخبارنا ... بين مصر تكتبها الجوائب
نحيى لدين الله بل ... فى شأنه نلقى المعاطب

ويلاحظ هناك اشارة فى قصيدته الى مجلة الجوائب التى كان يصدرها أحمد فارس الشدياق فى مصر وقد كانت تعنى كثيرا بأخبار السودان وكانت تنشر مقالات وقصائد لهم وكان مكاتبها فى السودان الشيخ محمد عثمان حاج خالد وهو من أسرة العمراب المعروفة وحفيد الشيخ حامد بن الفقيه سليمان المعروف باللين وهو أول من أحضر من مصر شرح عبد الباقى على خليل والشراخيتى على العشماوية والشيخ محمد عثمان والد الاستاذ الدرديرى القاضى أحد أقطاب الحركة الوطنية فى السودان وعضو مجلس السيادة الذى حل محل الحاكم العام البريطانى وقد أرسل الخليفة عبد الله الشيخ محمد عثمان سفيرا له لدى الامبراطور منليك عاهل الحبشة آنذاك واستطاع ان يبرم اتفاقية دفاعية بين السودان والحبشة عام ١٣١٥ه‍ /١٨٨٩ م ٠

● دور الأزهر
ابان الحكم البريطانى
(١٨٩٨ – ١٩٥٥ م)

كانت بريطانيا منذ ان جثمت على صدر مصر عام ١٨٨٢ م تعد العدة لاحتلال السودان ليكتمل به مخططها وليكون تحت قبضتها الطريق ممتدا من مصر الى الكاب فى جنوب أفريقيا – كان الخديوى توفيق قد سرح الجيش المصرى فى ١٩ سبتمبر ١٨٨٢ بأمر الغزاة البريطانيين وذلك بعد ستة أيام من معركة التل الكبير التى هزم فيها الثوار المصريون وكون جيشا مصريا جديدا يدربه ويقوده ضباط بريطانيون . وأمام الصراع الدولى المحموم والسباق نحو استعمار افريقيا وخوفا على الا يؤدى احتلال السودان الى مضاعفات ومشاكل دولية بين بريطانيا ومنافستها القوية فرنسا بالذات سيرت بريطانيا حملة لغزو السودان باسم مصر باعتبار السودان كان جزءا من ممتلكات الخديوى – وسميت « حملة استرجاع السودان » وكان السودان انذاك يخضع لحكم الثورة المهدية (١٨٨٥ – ١٨٩٨ م) وعين القائد العام للجيش المصرى الجنرال البريطانى السير هيربرت كتشنر قائدا لحملة الغزو يعاونه ضباط بريطانيون كبار وآخرون مصريون وسودانيون وكانوا جميعهم يعتبرون تابعين لخديوى مصر وكان الجنود كلهم مصريين مع فرقتين سودانيتين دربتا فى مصر خصيصا لهذه الحملة .

وكان كلما تم للجيش الفاتح احتلال مدينة أو منطقة يرفع عليها العلم المصرى واستمرت الحملة بطيئة عامين من الزمان وفى المعركة النهائية الفاصلة فى أم درمان عاصمة البلاد الحقت فرق بريطانية بالحملة

وفى ٢ سبتمبر عام ١٨٩٨ تم لها النصر النهـــائى على حـــكومة الثورة السودانية عقب معركة فاصلة وبعد مقاومة شهد التاريخ قليلا مثلها مما سجله الضباط البريطانيون الذين اشتركوا فى المعـــركة أو المراسلون الحربيون المرافقون للجيش الفاتح وكان النصر حقيقة حليفـــا للســـلاح الفتاك الذى استخدم واخترع ليستعمل خصيصا فى هذه الموقعة وهـــو مدفع المكسيم السريع الطلقات ٠

توجه قائد الفتح الجنرال كتشنر الى الخرطوم ورفع الع... طانى والمصرى ولأول مرة على أنقاض السراى الذى كان يحكم ... ردان غردون باشا البريطانى الجنسية باسم خديوى مصر قبل ثلاث ... عشر عاما منذ ذلك الوقت وكان الثوار السودانيون قد قتلوا غردون هذا عنـــدما سقطت الخرطوم فى أيديهم فجر ٢٦ يناير ١٨٨٥ ٠

املت بريطانيا على مصر اتفاقية فى ينـــاير ١٨٩٩ ليحكم بمقتضاها السودان عرفت باتفاقية الحكم الثنائى – بريطانيا فعـــلا ومصر اسما : وكان قد ابتدع فكرتها اللورد كرومر (ايفلن بيرنج) معتمد بريطانيـــا وقنصلها العام فى مصر والذى كان يحكم قبضته على الادارة فى مصر وهو من عائلة بيرنج البريطانية ذات الثراء والجـــاه العريض فى بريطانيا – وعرف السودان منذ ذلك الوقت بالسودان الانجليزى المصرى وعين كتشنر قائد حملة الفتح حاكما مطلقا على السودان ٠

لقد لقيت تلك الاتفاقية معارضة شديدة فى مصر باعتبار الســـودان أرضا مصرية وليس لبريطانيا حق فى المشاركة فى حكمه وخرجت جريدة اللواء بمقال صارخ لمصطفى كامل فى عددها الصادر بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٠٠ يعرب فيه عن سخطه وسخط طبقته على الاتفاقية ونظرته للسودان باعتباره جزءا من ممتلكات مصر ويرد اللورد كرومر (١) مبتدع الاتفاقية بقـــوله : –

انجلترا وليست مصر هى التى قامت فعـــلا بفتح هـــذه البـــلاد – صحيح ان خزانة مصر تحملت الجزء الاكبر من عبء مصروفات الغزو وان القوات المصرية بقيادة الضباط البريطانيين ساهمت بجزء مشرف من مجهود الحملة – الا انه من الصحيح أيضا انه خلال فترة الاعداد وتنفيذ السياسة كانت القيادة الاعلى والطولى لبريطانيـــا ولذلك فانه من السخف الادعاء

---

(١) محمد عمر بشير – تاريخ الحركة الوطنية فى السودان ص ٢٩ ٠

بأنه كان يمكن للحكومة المصرية اعادة فتح السودان دون مساعدة بريطانيا بالرجال والمال والقيادة العامة ومن ثم فان ضم الأراضى المستعمرة لانجلترا له ما يبرره الى حد ما » .

وكان الخديوى عباس حلمى (٢) قد زار السودان وفى احتفال كبير أعد له فى الخرطوم مساء ٤ ديسمبر ١٩٠١ ألقى كلمة قصيرة يرد فيها على كلمة ترحيب من الحاكم البريطانى وقائد الجيش المصرى جاء فيها : ـ

« .. العلمان الانجليزى والمصرى اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما اشارة الى الحكومة المشتركة التى أخذت على عاتقها حماية الاهالى من الوقوع فى شرك أهل الظلم والفساد وابتداء عصر هدوء وسعادة فى هذه الديار » .

لم تعط الاتفاقية بريطانيا حق مشاركة مصر فى حكم السودان بل اعطتها كل الوصاية على السودان فانفردت بحكمة واعترفت لمصر بحق اسمى فى السيادة على السودان . وهكذا أصبح كل وادى النيل مصر والسودان فى قبضة بريطانيا تحكمه عن طريق المعتمد البريطانى فى مصر والذى كان حاكم السودان البريطانى مسئولا لديه .... » .

وانتقل الجيش المصرى بكامل هيئته الى السودان وقائده العام هو حاكم السودان العام البريطانى واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٩٢٤م حيث اغتيل فى مصر السير لى ستاك حاكم السودان وقائد الجيش المصرى وتحركت بريطانيا لتملى على مصر شروطا قاسية على رأسها طرد الجيش المصرى والمصريين من السودان .

عكفت الادارة البريطانية الاستعمارية تبنى أجهزتها وكان على رأسها حاكم بريطانى منحته الاتفاقية سلطات مطلقة فى حكم البلاد يعاونه شلة من البريطانيين فى كل المراكز الكبرى ويعمل تحت أمرتهم ضباط وموظفون مصريون .

كانت الادارة الاستعمارية تعلم علم اليقين ان البلاد التى ستحكمها ذات نزعة دينية شديدة وفجرت ثورة فريدة فى التاريخ الحديث ووقف أهلها يبايعون المهدى قائد الثورة على ترك الدنيا للآخرة وأقاموا حكما ثيوقراطيا مدة ثلاثة عشر عاما ولذلك كانت حذره كل الحذر ألا تقع

---

(٢) نعدم شقير ــ جغرافية وتاريخ السودان ــ بيروت ص ١٣٢٨ .

فيما يمس عواطف الناس ومشاعرهم الدينية ولكنها كانت تضرب بكل قسوة أى تجمع دينى ينهض مناوئا لهم ٠

لقد أتت الادارة الاستعمارية لتقيم دولة علمانية بدلا من الدولة الثيوقراطية التى كانت قائمة آنذاك فلجأت الى سن القوانين المدنية واقامة المحاكم المدنية الى جانب المحاكم الشرعية التى تختص فى نصر قضايا الأحوال الشخصية ٠

وفى التعليم تركت الخلاوى والزوايا الدينية كما هى وفتحت المدارس النظامية ليدرس فيها التلاميذ المواد العلمية كالحساب والجغرافيا والتاريخ والمعلومات العامة مع قليل من سور القرآن والعلوم الدينية لتصبح غلبة التعليم العلمانى على الدينى هو أساس التعليم فى السودان فقد كان اللورد كرومر صاحب القبضة الحديدية على وادى النيل آنذاك يخشى ان ذلك النوع من التعليم الذى كان يقوم أساسا على دراسة القرآن من شأنه أن (١) يثير الحماس الدينى ٠

استعانت الادارة البريطانية فى السودان فى مجال القوانين بخبرتها وتجاربها فى الهند وبنظام التعليم بما كان يجرى فى مصر وتركت مهام التدريس والقضاء الشرعى للمصريين كما كونت لجنة استشارية من علماء السودان لتقدم لها النصح فى كل ما يتعلق بالشئون الدينية والتعليم الدينى فى البلاد وهنا فى مجالى التدريس والقضاء الشرعى يتجلى أثر العلماء المصريين من متخرجى الأزهر ودورهم المحمود المقدر فى وضع أسس النهضة العلمية فى البلاد وكذلك دور رفقائهم من العلماء السودانيين فى اللجنة الاستشارية التى كونها الحاكم البريطانى كما نرى فى الفصول القادمة ونبدأ بكلية غردون التذكارية وهى المؤسسة التعليمية الرئيسية التى تخرج فيها قادة السودان فيما بعد ٠

كلية غردون التذكارية :

كان كتشنر قائد حملة الغزو وسردار (القائد العام) الجيش المصرى قد توجه للشعب البريطانى لانشاء كلية علمية تحمل اسم

---

(١) محمد عمر بشير ــ تطور التعليم فى السودان ص ٦٥ ٠

الجنرال البريطانى غردون الذى كان يحكم السودان باسم الخديوى تخليدا له كأحد بناة الامبراطورية البريطانية وكشهيد ضحى بدمه من أجل بريطانيا اذ قتله ثوار السودان فى الخرطوم فى صبيحة ٢٦ يناير ١٨٨٥ وتوالت التبرعات من شتى الأصقاع ووضع اللورد كرومر معتمد بريطانيا فى مصر وحاكمها الفعلى حجر أساس الكلية فى الخرطوم باسم الملكة فكتوريا فى يناير ١٩٠٠ وافتتح مبانيها اللورد كتشنر رسميا عام ١٩٠٢ وأطلق عليها كلية غردون التذكارية وتمنى أن يرتكز عليها التعليم النظامى فى السودان الذى من شأنه أن يلبى حاجات السودانيين تحت اشراف بريطانيين لخلق طبقة منهم ترتبط فكريا ببريطانيا كما كان يرى أن قيام هذه الكلية سيعطى بريطانيا المركز الأول فى أفريقيا كقوة حضارية ٠

كذلك أفصح اللورد سالسيبورى رئيس وزراء بريطانيا آنذاك فى الاجتماع الكبير الذى عقد لاختيار لجنة تنفيذية تشرف على تنفيذ مشروع الكلية بقوله :

« ان هذا المشروع فرضته علينا التزاماتنا الامبراطورية فهو محاولة لازالة ما بين الشعوب من حواجز واقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الانسانية » ٠

وهكذا اكتملت لبريطانيا فى السودان كل مقومات الحكم وقيام ادارة حديثة قوانينها مستمدة من قوانين الهند درة التاج البريطانى كما كانوا يطلقون عليها كما وضعت أسس التعليم فى خدمة النظام وكان على رأس الادارة نخبة متمرسة من الضباط البريطانين فى أول الأمر استبدلوا بأخرين مدنيين فيما بعد ٠

غير ان الارتباط التاريخى الأبدى والروحى الذى يربط السودان ومصر كان له أثر أكبر وأقوى من تلك المخططات والنوايا فعامل اللغة العربية والدين والتاريخ المشترك جعل من الشعبين أخوة وذوى قربى هذا فضلا عن ان الشعبين كانا يقعان تحت وطأة الحكم الاستعمارى البريطانى ولذلك فان كل محاولات بريطانيا وسياستها التى كانت تقوم على أساس التفرقة بين السودان ومصر قد باءت بالفشل التام ٠

لقد استأثرت بريطانيا بكل شىء فى حكمها السودان فشغل البريطانيون كل الوظائف الكبرى وتركت لمصر وظائف المآمير الذين يعملون

تحت امرة رؤساء بريطانيين وكذلك القضاء الشرعي وتدريس اللغة العربية والدين في المدارس النظامية وكلية غردون بالذات .

وكان من حسن التوفيق ان الامام محمد عبده ذلك المصلح الديني والوطني الكبير قد عاد الى مصر من منفاه عام ١٨٨٩ بعد اشتراكه في الثورة العرابية وعين مفتيا للديار المصرية وقد اعتمدت عليه الادارة الأجنبية في السودان لاختيار قضاء الشرع والمعلمين المصريين للسودان .

وتقتضي الأمانة التاريخية ان أنقل ماكتبه (١) اللورد كرومر في كتابه مصر الحديثة عن الامام محمد عبده مقارنة به مع آخرين من علماء مصر آنذاك .

« كان الشيخ محمد عبده عالما من نوع آخر واني لأضيف نوعا متميزا عن زملائه الذين وصفتهم آنفا . كان الشيخ محمد عبده أحد القوى القائدة في حركة عرابي وعندما أتيت الى مصر عام ١٨٨٣ م كان في محنة ومثلوم الصيت ولكن توفيقا ذا الطبع السمح عفا عنه أثر ضغط بريطانيا فعين قاضيا وادى مهمته تلك باقتدار ونزاهة . كان الشيخ محمد عبده صاحب أفكار عريضة متنوره وكان يعترف بالتجاوزات التي نشأت في ظل الحكومات الشرقية وكان يدرك ضرورة المساعدة الأوربية لعملية الاصلاح بيد أنه لم يكن لينتمي لذلك النوع من المصريين المتفرنجين الذين كان يرى فيهم صورة سيئة للأصل . كان ضد الخديوي وضد الباشوات وليس معنى هذا أنه كان يعترض على رتبة الباشوية ولكنه من خلال تجربته لم يلتق الا بعدد ضئيل من الباشوات الكرام أصلا وفي الواقع كان الشيخ محمد عبده خياليا وغير عملي ولكنه كان وطنيا مصريا قحا وربما كان من مصلحة القضية الوطنية المصرية اذا توفر عدد من أمثاله ... »

ثم يستطرد اللورد

« ان الأهمية السياسية لحياة الشيخ محمد عبده تكمن فيما يمكن وصفه بأنه مؤسس مدرسة فكرية في مصر شبيهة جدا بتلك التي أنشأها في الهند السيد أحمد خان مؤسس(٢) جامعة عليكره ــ ان الهدف المعلن لأولئك الذين ينتمون الى هذه المدرسة هو أن يبرروا طرق الاسلام للانسان أي للانسان المسلم وهم جيروندييو الحركة الوطنية المصرية وهم يرصمون

---

(١) لورد كرومر ــ مصر الحديثة جزء ٢ ص ١٨٠ / ١٨١ .

(٢) ومن روادها زعماء الهند من المسلمين الذين أنشأوا دولة الباكستان . اقبال ومحمد على جناح وغيرهم .

كثيرا بتهمة الهرطقة لدرجة الاعتقاد بأنهم يعجزون من ان يستوعبوا معهم ولمدى بعيد المسلم المحافظ الأمين وفى الناحية الأخرى فهم ليسوا متفرنجين بالقدر الذى يشد اليهم تعاطف المقلدين المصريين للأسلوب الأوربى فهم فيما يختص باسلامهم دون المسلم الملتزم بالعقيدة كما وبالنسبة لتفرنجهم دون المصريين المغالين فى التفرنج ولذلك تصبح مؤامتهم بالغة الصعوبة غير انهم يستحقون كل التشجيع والتأييد الممكن فمنهم الخلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربى •

ان الوطنيين المصريين سيجدون فى نجاح مؤيدى محمد عبده الأمل المرجو اذ يمكنهم أن ينفذوا شيئا فشيئا برنامجهم فى خلق مصر المستقلة ذاتيا حقا » •

وفى هامش نفس الصفحة يقول اللورد كرومر « كنت أمنح الشيخ محمد عبده لعدة سنوات كل تأييد فى مقدورى بيد أن ذلك كان عملا عسيرا اذ انه فضلا عن الخصومة الشديدة التى كان يواجهها من المسلمين كان أيضا لسوء الحظ فى عداء مع الخديوى وقد استطاع أن يحتفظ بمنصبه كمفتى باستناده على التأييد البريطانى القوى •

وفى تقاريرى السنوية تحدثت مرارا عنه مشيدا به وليس هناك من أسف يصدق على وفاته المبكرة أكثر منى •

الامام محمد عبده وعلاقة قديمة بالسودان :

لم يكن الامام محمد عبده بعيدا عن الأحوال فى السودان منذ ان كان مع أستاذه الثائر الاسلامى جمال الدين الأفغانى يلهبان الشعور الدينى والوطنى ضد الاستعمار البريطانى وكانا يكتبان فى مجلة العروة الوثقى التى كانا يصدرانها فى باريس دفاعا عن الثائر محمد أحمد المهدى والثورة السودانية ويروى أنهما كانا ينويان السفر سرا الى السودان لمساعدة المهدى وتنظيم سير الثورة فيه •

وفى تحقيق صحفى آجراه مندوب صحيفة بول مول(١) الانجليزية

---

(١) نشر الحديث فى عددها الصادر يوم ١٨٨٤/٨/١٧ نقلا عن التربية فى السودان جزء ٢ ص ٩٧ للدكتور عبد العزيز عبد المجيد •

مع الامام محمد عبده فى أحد زياراته للندن وكانت الثـــوره المهدية فى السودان فى عنفوانها سأل مندوب الصحيفة الامام محمد عبده :

« أليس السودانيــون قوما متعصــبين ؟ » وكان رد الامام « ليس السودانيون أكثر تعصبا منى فحينما كنت أعلم الفلسفة فى القاهرة كان الكثيرون من الطلاب المصريين يخشــون حضــور دروسى بينما كان هناك أربعة وثمانون طالبا من السودان يحضرون جميعا ليستمعوا الى ٠ انهم ليسوا متعصبين » ٠

وكان مع الامام محمد عبده عدد من السودانيين يدرسون معه فى مصر على جمال الدين الأفغانى فى الأزهر منهم الشيخ البشير ود نعمة العالم السودانى المعروف فى رفاعة على النيل الأزرق والذى كان نابغــة فى الفلسفة ٠

ويروى ان الامام محمد عبده كان قد اقترح (١) على أستاذه جمال الدين الأفغانى فى باريس أن ينشئا مدرسة يختاران لها التلاميذ من نجباء الناشئة فى الأقطار الاسلامية وممن يتوسمان فيهم الخير ثم يربيانهم على منهج قويم ويعدانهم للزعامة والاصلاح وبعد عشر سنين تخرج المدرسة عددا من التلاميــذ المستعدين لترك أوطانهم والســير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب ولكن الاقتراح لم يرق لجمال الدين فرفضه ـ ولما عاد الامام محمد عبده الى مصر من منفاه وأصبح مفتيا لمصر وجد الجو ملائما لتنفيذ رأيه ذلك وفعلا استطاعت مدرسة محمد عبده أن تفرض وجودها وتسهم مساهمة ايجابية بطريقة وأخرى فى الحركة الوطنية فيما بعد أى بعد وفاته عام ١٩٠٥ ومن تلك المدرسة على سبيل المثال محمد فريد وسعد زغلول وعدلى يكن وعلى شعراوى ولطفى السيد وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومصطفى المراغى ومنصور فهمى ومصطفى صادق الرافعى ومحمد شاكر ومصطفى المنفلوطى وعبد الوهاب النجار ومحمد الخضرى وكلهم لعبوا دورا مرموقا فى الحياة السياسية أو الاجتماعية فى مصر ٠

الامام محمد عبده واختيار علماء للسودان :

أما عن السودان فقد خصه الامام محمد عبده برعايته واهتمامه بعد

---

(١) محمد سعيد عبد المجيد (سعيد الافغانى) ـ نابغة الشرق السيد جمال الدين الافغانى ص ٥٥ نقلا عن كتاب رشيد رضا لابراهيم العدوى ص ٦٩ سلسلة اعلام العرب ٠

أن أصبح مفتيا لمصر فاختار له المخلصين والنابهين من تلامذته أو من تأثروا به ليعملوا في سلك القضاء الشرعي والتدريس ٠

يقول السيد محمد رشيد رضا أحد تلاميذ الامام محمد عبده المقربين « كانت حكومة السودان تعتمد على الأستاذ الامام في اختيار قضاة الشرع له من علماء مصر ولا سيما قاضي القضاة فيختار لها خير قضاة الشرع علما وأخلاقا وادارة ومعرفة بحال الزمان كأصحاب الفضيلة الأساتذة الشيخ محمد شاكر والشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغي ٠

ومن حسن المصادفة أن هؤلاء الثلاثة الذين تولوا منصب قاضي القضاة في السودان كانوا على أتم المودة والصداقة ولبعضهم وشيجة رحم مع بعض) والشيخ اسماعيل خليل وكذلك كان سائر القضاة الشرعيين وبعض أساتذة مدرسة غردون من مريديه كالشيخ محمد الخضري والشيخ عبد الوهاب النجار وغيرهم من خواص الأساتذة الشرعيين المصريين المتبعين لطريقته في الاصلاح ٠

أما عن وظائف تدريس اللغة العربية والدين فقد تولاها أساتذة أزهريون ما زالت ذكراهم العطرة خالدة للآن اختارهم الامام محمد عبده من خيرة تلاميذه منهم محمد الخضري مدرس التاريخ الاسلامي وعبد الوهاب النجار الأديب واللغوي المعروف وقد اختيرا للتدريس في الجامعة المصرية بعد عودتهما لمصر كما نذكر الشيخ محمد الجداوي العالم الأزهري الذي ألف في الفقه والميراث وفيهم العالم العلامة وحجة اللغة العربية الشيخ عبد الرؤوف سلام ومنهم الشيخ ماضي أبو العزائم المتصوف والمتخصص في التفسير والحديث وغيرهم من رجالات الأزهر الذين بلغوا قرابة الخمسين معلما وتخرج عليهم الرعيل الأول من السودانيين والذين كانوا قد حفظوا القرآن ودرسو بعضا من أصول اللغة والأدب العربي في خلاوي ومساجد مناطقهم ٠

لم ترض الارساليات المسيحية عن نشاط أولئك العلماء الازهريين والدور الذي قاموا به في تدريس الطلاب السودانيين في كلية غردون فقد نشر بحث في مجلة الارساليات العالمية تقول فيه احدى (١) الارساليات : —

---

(١) محمد عمر بشير — تطور التعليم في السودان ص ٩٣ نقلا عن بحث نشر بمجلة الارساليات ١٩٠٧ عن الجنرال غردون والتعليم في السودان ٠

« ان كلية غردون التذكارية بأسرها يجب القضاء عليها بوصفها كلية اسلامية لحما ودما من ناحية دينية ٠٠٠٠ ومن المؤكد ان اسم كلية غردون اسم على غير مسمى ولا يمكن الا أن يكون سبيلا لخداع الشعب المسيحى فى بريطانيا العظمى وأن الجنرال غردون لم يخلد له ذكر فى هذه الكلية بل خلد النبى محمد ٠

ولعل تسمية الكلية مدرسة محمد الروحية فى أعالى النيل تكون أنسب لأنها بكل تأكيد تقوم بتدريس الشريعة والقرآن أكثر من أى علم آخر ٠٠٠

واستطرد كاتب البحث يهاجم تعيين الأساتذة المصريين للمدارس النظامية وكليـة غردون لأنهم من متخرجى الأزهر الذى يقول عنه أنـه « معروف فى جميع أرجاء العالم ليس بأنه أكبر معهد دينى وحسب بل من أعظم وأشد المعاهد الدينية تعصبا للاسلام » ٠

اختار الامام محمد عبده الشيخ محمد شاكر عام ١٩٠٠ ليكون أول قاض للقضاة فى السودان وهو من تلاميذه ويعتبر من النخبة الممتازة التى تخرجت فى الأزهر وبعد عودته لمصر من السودان عين وكيلا للأزهر وعضوا فى هيئة كبار علماء مصر وقد قطع شوطا فى طريق اصـلاح الأزهر مترسما خطى الشيخ محمد عبده ثم أسكتت الحماية (١) البريطانيه التى فرضت على مصر ابان الحرب العالمية الأولى صوت الاصلاح الذى كان ينادى به الشيخ شاكر حتى جهر به مرة أخرى فيما بعد الشيخ مصطفى المراغى الذى أصبح شيخا على الأزهر عام ١٩٢٨ ـ لقد ناصر الشيخ محمد شاكر الحركة الوطنية أيام سعد زغلول وله مؤلفات وبحوث عدة ٠

وللشيخ شاكر (٢) يعود الفضل فى وضع أسس القضاء الشرعى فى السودان فهو الذى وضع لائحة ترتيب المحاكم الشرعية التى تناولت بالتفصيل شروط اختيار القضاة والموظفين لهذه المحاكم واختصاصاتهـا وتقسيمها الى غير ذلك من المسائل التنظيمية كما وضع اللائحة النظامية للمحاكم وهى تتناول بعض المسائل الاجرائية التى تتعلق بالسـير فى الدعاوى ولائحة الرسوم وقد أدمجت لائحتا الترتيب والنظام عندما تولى الشيخ مصطفى المراغى منصب قاضى القضاة ٠ والشيخ محمد شاكر هو

---

(١) عبد الحليم الجندى سلسلة اعلام الاسلام الامام محمد عبده ص ١٦٩ ٠

(٢) د٠ خليفة بابكر الحسن ـ بحث عن الشريعة الاسلامية والنظام القانونى فى السودان نشر فى كتيب الاسلام فى السودان ٠

الذى اقترح انشاء مدرسة القضاء الشرعى بكلية غردون والتى تخرج فيها القضاة السودانيون وأصبح عميدها العالم السودانى الشيخ هاشم أبو القاسم من متخرجى الأزهر واستمر الشيخ شاكر يخدم العلم فى السودان حتى بعد عودته الى مصر فقد استعان به وبآرائه الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم شيخ العلماء فى انشاء معهد علمى فى السودان على غرار الأزهر الشريف وظل علماء السودان يحفظون له هذه اليد حتى وفاتهم وقد أطلقوا على لائحة تنظيم معهد أم درمان العلمى لائحة الشيخ شاكر .

ثم اختار محمد عبده الشيخ مصطفى المراغى ليكون قاضيا فى مديرية دنقلا فى السودان عام ١٩٠٤ ثم أصبح قاضيا للقضاة منذ عام ١٩٠٨ الى ١٩١٩ ، والشيخ المراغى درس على الامام محمد عبده فنون الحكمة وفروع الفلسفة ويعد من أنجب وألصق تلاميذه به كما يعتبر الشيخ المراغى أحد قادة الاصلاح الدينى فى الأزهر .

كان للشيخ المراغى دور كبير فى تطور المعهد العلمى فى أم درمان فقد كان وثيق الصلة بالشيخ أبى القاسم مؤسس المعهد الذى استعان به مرارا فى كثير مما يهم المعهد فى طوره الأول وعندما ترك الشيخ المراغى السودان عائدا لمصر كان يتمثل بقول القائل : —

خليلى بالبوباء عوجا فلا أرى بها منزلا الا جديب المقيد
تذق برد نجد بعد ما لعبت بنا تهامة فى حمامها المتقد

ولم تنقطع صلته بالسودان وعلمائه الى أن توفاه الله . كذلك كان لكل اصحاب الفضيلة من العلماء المصريين الذين شغلوا منصب قاضى القضاة دور ملحوظ فى تطور المعهد وتقدمه منذ نشأته الى أن استوى جامعة اسلامية .

وفى عام ١٩٠٥ زار الامام (١) محمد عبده السودان قبل وفاته بقليل ليرى بنفسه ويقف على مجهود تلاميذه من العلماء وما غرسوه فى نفوس الطلاب السودانيين . فدخل فصول الدراسة فى كلية غردون وشهد طرفا من القضايا الشرعية فى المحاكم وأصدر بعض الفتاوى

---

(١) السيد محمد رشيد رضا - تاريخ الشيخ محمد عبده .

واتصل ببعض علماء السودان وناقشهم وناقشوه وعاد الى مصر راضيا مرضيا حيث توفى فى نفس العام .

وهكذا وضع الشيخ محمد عبده تقليدا سليما بأن يختار للسودان قضـــاة مصريين من علماء مصر النابهين من متخرجى الأزهر واستمر هذا التقليد معمولا به قرابة نصف قرن أى الى عام ١٩٤٧ م حيث تولى أول سودانى من الذين درسوا على العلماء المصريين ذلك المنصب وهو الشيخ احمد الطاهر .

ونذكر من أولئك القضـــاة الشـــيخ محمد الأمين قـــراعة من أسرة قراعة المعروفة فى مصر والذى أصبح عضوا فى المحكمة الشرعية العليا فى مصر بعد عودته من السودان . ومنهم الشيخ محمد نعمان الجارم وقد وضعه أحد العلماء السودانيين فى قصيدة احتفاء بشقيقه على الجارم عند زيارته عام ١٩٣٧ بقوله :

ومنه حظينا بأبى الفقه محمد الجارم نعمانه
اياس الذكاء شريح القضاء على البيان وسحبانه

ومن القضاة المصريين الذين شغلوا منصب قاضى القضاة نذكر الشيخ حسن مأمون الذى أصبح شيخا للازهر فيما بعد وقد اسهم فى تطوير المعهد العلمى فى امدرمان وفى انشاء المعاهد الاقليمية فى القطر .

لقد قدم أولئك القضاة الى السودان قدوم سعد وكانوا كلهم يؤدون رسالتهم باخلاص وصدق وأسهموا مساهمة تامة فى وضع نظام القضاء الشرعى وترقينه فى السودان باعتبارهم سلطة التشريع العليا فى المحاكم الشرعية كما ساهموا فى كثير من أوجه الحياة العلمية فى البلاد .

تولى منصب قاضى القضاة فى السودان من المصريين أصـــحاب الفضيلة :

الشيخ محمد شاكر من ١٩٠٠ الى ١٩٠٤
« محمد هارون من ١٩٠٤ الى ١٩٠٨
« مصطفى المراغى من ١٩٠٨ الى ١٩١٩
« محمد امين قراعة من ١٩١٩ الى ١٩٣٢
« محمد نعمان الجارم من ١٩٣٢ الى ١٩٤٠
« حسن مأمون من ١٩٤٠ الى ١٩٤٧ م .

« لقد حظيت كلية (١) غردون بنخبة ممتازة من الأساتذة المصريين الذين جمعوا بين الوطنية والعلم فشاركوا فى تعليم السودانيين واذكاء الروح الوثابه المتطلعة الى العلم والحرية كانوا سـندا لحـركة الوعى الوطنى التى كان الطلبة السودانيون فى كلية غردون من طلائعهـا بما نالوا من معرفة فتحت أمامهم باب الأمل فى التقدم واللحاق بركب الأمم المتحضرة ولعل هؤلاء الأساتذة لم يحاضروا أولئك الطـــلبة فى علم السياسة ولم يلقوا عليهم دروسا فى الوطنية أو القومية ولم يحدثوهم عن مسألة تقرير المصير مباشرة فى تلك الفترة المبكرة من الزمن ولكنهم دون شك اذكوا روحا شابة وبعثوا عزيمة وزادوا نار الثورة ضـــد الاستعمار حطبا جعل الجذوة مشتعلة حمل المشعل فيها الســودانيون وكان هؤلاء الأساتذة يصدرون عن شيء يجدونه فى مصر منذ العقـــد الأول من هذا القرن وكان عدد هؤلاء الاساتذة كبيرا فى الكلية فقـــد بلغ خمسين مدرسا أو يزيد وكان أول ناظر لكليـــة غردون الأستاذ أحمد هدايت » .

لقد أصبحت كلية غردون صرحا شامخا ومنارة كبرى للعلم فى السودان وأخذ طلابها ينهلون من الثقافة الغربية على أساتذة بريطانيين يغوصون فى نفائس الثقافة العربية وأدابها بفضل الأساتذة المصريين من متخرجى الأزهر الذين فتحوا لهم تلك الآفاق وأخرجوهم من العزلة الفكرية التى كانوا يعانون منها فى دراساتهم السابقة وعلموهم أن دعوة الاسلام لا تتعارض مع التعليم العلمانى ومفاهيم الحياة العصرية وهذا هو جوهر تعاليم الامام محمد عبده كما كانوا لهم القدوة الحسنة بما تحلوا به من صفات العلماء وما كانوا عليه من تفقه فى العلم وسمو فى الأخلاق فأحبوهم وأكرموهم وظلت ألسنتهم تلهج بشكرهم وفضلهم الى ان رحلوا عن الدنيا وخرج جيل من بعدهم مزودا بالعلم ومتأثرا ومتفاعلا بمـا كان يجرى فى مصر والعالم من نهضة فكرية وكان منهم قادة الحركـة الوطنية الذين حققوا للبلاد استقلالها وسيادتها الوطنية ولم تكن كلية غردون اذا كما أراد لها واضعوها ومؤسسوها من دهاقنـــة الاستعمار البريطانى وبناة الامبراطورية البريطانيـــة مثل أخواتهـا فى المؤسسات العلمية الأفريقية التى أنشئت لنفس الغرض وتخرج فيها فئة من المتعلمين الأفريقيين الذين ارتبطوا ببريطانيا وجدانيا وفكريا واتخذوا من رجالاتها مثلهم الأعلى .

---

(١) نقلا عن الرباط الثقافى بين مصر والسودان ص ١٠٧ للدكتور ابراهيم الحاردلو .

● الأساتذة المصريون والنشاط الاجتماعي

لم يقصر أساتذة كلية غردون وكانوا أساس من المصريين الأزهريين رسالتهم في محيط التدريس والقضاء الشرعي بل قاموا بنشاط محمود في الحياة العامة بين المواطنين وقد برز ذلك النشاط بوجه خاص في الصحافة السودانية على صغرها ورغم ما كانت تفرضه الادارة الأجنبية من قيود ورقابة على مواد الصحيفة .

لقد كانت هناك مجلة الرائد التي أنشأها تاجر اغريقي عام ١٩١١م استجابة لرأي بعض متخرجي كلية غردون وكان يحررها صحفي لبناني هو عبد الرحيم قليلات وكان يسهم في تحريرها (١) أساتذة كلية غردون وخاصة الشيخ عبد الرؤوف سلام المصري وفؤاد الخطيب السوري وكانا يدرسان الأدب العربي في كلية غردون .

كان هؤلاء الأساتذة يوجهون الصحافة نحو العالم الاسلامي تأكيدا لتبعية السودان للخلافة العثمانية كما كانوا يعملون لربط السودان بالعالم العربي بعد أن ظهرت أهداف السياسة البريطانية لعزل السودان عن العالم الاسلامي العربي ولذلك كانوا يشجعون الكتاب على السير في هذا الاتجاه ويفسحون المجال لمجاراة فحول الشعراء العرب وتشطير وتخميس قصائدهم وينتهزون أي فرصة مواتية لاستغلالها في هذا الاتجاه مثال ذلك عندما هبطت الطائرة التركية ادرميد ارض مصر عام ١٩١٤ وكان يقودها للمرة الاولى في تاريخ المسلمين شابان مسلمان من الترك ـ لقد كان هذا حدثا هاما في مصر

والسودان والبلاد الاسلامية آنذاك فأهابت صحيفة الرائد بايحاء من هؤلاء الاساتذة بالشعراء السودانيين لتشطير بيتي شوقي في استقباله للطائرة وتخليدا لتلك المناسبة يقول شوقي :

يـا أدرميد الاطيري مبلغة
رسائل الشوق من عمرو الى عمر

الى الذى خفقت فى الأرض رايته
واليوم تخفق فوق الشمس والقمر

وقد أسرع السودانيون للاستجابة للنداء مدفوعين بعقيدتهم الدينية ونظرتهم للسلطان العثمانى كخليفة لكافة المسلمين مما توجب طاعته تباروا فى تشطير البيتين وفاز بالمرتبة الأولى الشيخ محمد عمر البناء متخرج الازهر بقوله :

« يا أدرميد الأطيرى مبلغه »
خليفة الله عنا أصدق الخبر

بلغيه من الاسلام قاطبة
رسائل الشوق من عمرو الى عمر

الى الذى خفقت فى الأرض رايته
وعززتها سيوف الله بالظفر

مدت على الأرض ظلالا تعاذله
واليوم تخفق فوق الشمس والقمر

وفاز بالمرتبة الثانية الأستاذ أحمد محمد صالح من الرعيل الأول من متخرجى كلية غردون اذ يقول فى تشطير البيتين :

((يا ادرميد الاطيرى مبلغه))
خليفه الله عنا اصدق الخبر

حييت سابحة فى الجو حاملة
((رسائل الشوق من عمرو الى عمر))

((الى الذى خفقت فى الارض رايته
وها بها الخلق من بدو ومن حضر

أعلامه خفقت فى المشرقين معا
((واليوم تخفق فوق الشمس والقمر))

وفاز بالمرتبة الثالثة الشيخ حسن عثمان بدرى وهو يقــول فى تشطيره (١):

« يا أدرميد الأطــيرى مبلغــه »
روح ابن فرناس ما أوتيت من ظفــر
ورفرفى فوق نجم السعد حــــاملة
« رسائل الشوق من عمرو الى عمر »
« الى الذى خفقت فى الأرض راينه »
يحفهـــا النصر من يدو ومن حضر
تاقت الى القبة الزرقــاء فارتفعت
واليوم تخفق فوق الشمس والقمــر

وظلت « الرائد » تلتزم هذه السـياسة والاتجـــاه وأخيرا لم يطق صبر الادارة البريطانية فابعدت رئيس تحـريرها قليلات من الســودان وخلفه فى تحريرها أحـد خريجى كليـة غـردون وهو الشـيخ حسين شريف الذى يعتبر بحق الصحفى السودانى الاول ثم توقفت عن الصدور عام ١٩١٩ م لقد كانت الرائد ترسل قبسا من النور ادى الى وعــى سياسى وبداية للنهضة التى قادها الوطنيون فيما بعد وبنوا عليهـــا سودانهم الجديد .

وكما أفاد السودان من بقاء الاساتذة المصريين بين ظهرانيهم مرة من الوقت نهلـوا من فيض علمهم وتأثروا بآرائهم الســـياسية كذلك كان لوجود الضباط المصريين أثر واضح أيضــا فى غرس بذور النهضة الوطنية فى السودان منذ أن انتقلوا الى الســودان عام ١٨٩٨ م الى آن أبعدوا عنه عام ١٩٤٢ م خاصة الذين كانوا يتعاطفون مع الحركة الوطنية المصرية وكان منهم عدد كبير من أنصـــار الثورة العرابية وأعضاء الحزب الوطنى وتروى الوثائق السرية أن قيادة الحزب المصرى انتقلت للضباط المصريين فى الســودان بعد رحيل محمد فريد الى أوربا وكان من قادة الحزب فى السودان البكباشى فطين والد الدكتور احمد فطين الطبيب المصرى المعروف وكان منهم الشاعر حافظ ابراهيم الذى قال عنه رصيفه أحمد شوقى فى مرثيته له :

---

(١) د. جعفر محمد على بخيت ـ الادارة البريطانية والحركة الوطنية ص ٤٣ .

يـا مانـح السـودان شرخ شـبابه
ووليـه فى السـلم والهيجـاء
لـما نزلت عـلى خمـائله نـوى
نبـع البيـان وراء نبـع المـاء
قلـدته السـيف الحسـام وزدتـه
قلمـا كصـدر الصعدة السـمراء

وكان منهم محمد فتوح صديق البطل السودانى على عبداللطيف رئيس جمعية اللواء الابيض واحد قادة الحركة الوطنية فى تـاريخ السودان الحديث .

وكان منهم حمدى سـيف النصر الذى أصبح وزيرا للدفاع فى حكومات الوفد والذى لم تنقطع صلته بالسودان وكان يعتبر ابا (١) للطلاب السودانيين فى مصر . وكان منهم عبد الخالق حسن مأمور أم درمان ، وقد توفى فيها فبكاه السودانيون قاطبة لفضله ومواقفه الوطنية والانسانية دفاعا عنهم ومؤازرة لهم وشيعت جنازته فى موكب ضـخم انتهى بمظاهرة صـاخبة كانت تهتف بحيـاة مصر وسـقوط الاستعمار البريطانى وكانت تلك المظاهرة بمثابة الشرارة للثورة الوطنية عام ١٩٢٤ م .

وكان منهم اللواء محمد فاضل متخرج الأزهر وكان أديبا وشاعرا – ترك اللواء فاضل – أثرا محمودا فى انعاش الحركة الآدبية والسياسية فى مدينة عطبرة فى شمال السودان مقر عمله آنذاك فى سلاح المهندسين وعطبرة هى مدينة العمال والموظفين وهؤلاء هم الذين قامت عـلى أكتافهم أول حركة عمالية مرهوبة الجانب كما كانت أحد معاقل مؤتمر الخريجين العام قائد الحركة الوطنية منذ الثلاثينات .

وعندما قام طلاب المدرسة الحربية السودانيون بمظاهرة حربية فى الخرطـوم فى أغسطس عام ١٩٢٤ وقدموا للمحاكمة وقف اللـواء فاضل مدافعا عنهم رغم ما كان يشيعه البريطانيون فى جو رهيب .

لقد قامت فى البـلاد بطبيعة الحال حـركة وطنية قوامها متخرجو المدارس بمـا فيهم ضـباط الجيش وكانت تتجاوب مع الثورة المصرية

---

(١) د. ابراهيم الحردلو – الرباط الثقافى بين مصر والسودان ص ١١١ .

فقامت الجمعيات السياسية وحفلت البلاد بمظاهرات فى كل مدن السودان وبالذات فى الخرطوم تهتف بسقوط الاستعمار وتنادى بوحدة مصر والسودان واعتقل قادة الحركة وعلى رأسهم المناضل الضابط السودانى على عبد اللطيف . وفى ٩ أغسطس تحرك طلاب المدرسة الحربية فى مظاهرة مسلحة نحو منزل على عبد اللطيف الذى كان معتقلا آنذاك وأدوا التحية العسكرية على شرفة ثم جابوا شوارع الخرطوم وانتهوا الى السجن حيث كان على عبد اللطيف هناك وكانوا يهتفون بحياته وحياة مصر .

لقد كانت الادارة البريطانية تنظر بعين القلق والفزع من نشاط الموظفين والأساتذة والضباط المصريين وتعاطفهم مع الوطنيين السودانيين وكانت تضع خططها لابعادهم جميعا من السودان وأتتها الفرصة مواتية حيثما أغتيل السيرلى ستاك حاكم السودان البريطانى وقائد الجيش المصرى فى القاهرة فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٢٤ . فأملت بريطانيا شروطا قاسية على مصر وأهمها سحب الجيش المصرى من السودان فى خلال ٢٤ ساعة ثم أسرع اللورد اللينى المندوب السامى البريطانى فى مصر فأبرق حاكم السودان البريطانى لتنفيذ أمر الجلاء ولكن القائم مقام أحمد رفعت قائد سلاح المدفعية المصرية رفض الاستجابة للامر وأصر أن يأتيه الأمر من ملك مصر .

وفى مساء ٢٧ نوفمبر عام ١٩٢٤ تحرك ستة ضباط سودانيين على رأس قوة قوامها ١٢٠ جنديا قاصدين الخرطوم بحرى للانضمام لسلاح المدفعية المصرى ولكنهم قبل أن يصلوا طوق الجيش البريطانى سلاح المدفعية المصرى وفتح جسر النيل الأزرق ليحول دون اتصال القوة السودانية بالمدفعية المصرية وتصدت قوة من الجيش البريطانى لهم وكان يقودها الجنرال هدلستون الذى أصبح حاكم السودان مؤخرا فى الأربعينات وطلب من الفرقة السودانية أن تعود أدراجها الى ثكناتها ولكنها رفضت الأمر والتحمت مع القوة البريطانية وأصلتها نارا حامية محتمية بالمستشفى العسكرى ولم يستطع الجيش البريطانى أن يقضى على الفرقة السودانية الا بعد أن استعمل الأنوار الكاشفة لتنير للمدافع الثقيلة من ثكنات الجيش البريطانى . ولكن المقاتل السودانى كان يهتدى على مكان العدو من حيث أومضت الأنوار الكاشفة فيقذف رصاصة عليه ويصيب من جنده مقتلا ولكن العدو دك المستشفى العسكرى دكا ويموت تحت الأنقاض قائد الفرقة السودانية عبد الفضيل

ألماظ وسلم ما بقى منها بعد أن نفدت ذخيرتها وقد وصف الشاعر حسين منصور تلك الملحمة بقصيدة جاء فيها :

وقــف الجيش وقفـــة ليس تنسى
وأجـــاد الوقـــوف عنـــد اللقاء

ضـــحك الموت بينه ساعة الجسر
وحيـــا ملوحـــا بالقضـــــــاء

صـــــائحا للامـــام صـــيحة زهو
صـــائحا للـــوراء فى الأعـــــداء

فـــاذا أومضـــــوا لكشف وميض
بســـم المـــوت بســـمه استهزاء

ورأى المســـتجلى الطـريق اليهم
شـــاكرا أن هـــدوه بالأضـــواء

يـــالهـــا ليلـــة ويـــوما عبوســـا
تركا الشـــعب ســـاخطا للسماء

يســـــأل الله رحمـــة ومصـــيرا
كامـــلا فى الحقـــوق حـق البقاء

عـــــاش أهـــل الجنوب أخوة مصر
فى الضـــحايا وعـــاش كل فـــدائى

وفى يوم ٢٨ نوفمبر وصل البكباشى أمين هيمن على طائرة حربية يحمل أوامر الملك فؤاد لقائد المدفعية بالانسحاب من السودان ٠

وفى ٥ ديسمبر نفذ حكم الاعدام بالقـــرب من ثكنات الجيش البريطانى على الضباط حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وسليمـــان محمد واستبدل حكم الاعدام بالسجن المؤبد على الضابط على البنا كما حكم غيابيا على الضابط السيد فرح بالاعدام اذ انهم لم يعثروا عليه ، وكان قد سبح على النهر وسافر متنكرا الى مصر مع المدفعية المصرية ٠

وقد أشار لأولئك الشهداء الشاعر السودانى توفيق صالح جبريل فى قصيدة أرسلها لصديقه توفيق البكرى الذى هرع الى مصر قبـــل حوادث ١٩٢٤ مع لفيف من الطلاب السودانيين ليتلقوا العلم هناك جـــاء فيها :

توفيق : أين بشير(١) ؟ قد ضحيتما
وفتحتما السودان خير كفاح

هاجرتما والأمن غير ميسر
بربوعنا والعلم غير متاح

لا تبتئس أن المآتم أن تقس
متأملا لشبهة الأفراح

أعلمتما ما كان بعدكما وما
فعلت باهلينا يد السفاح

أودى بأربعة (٢) صدور فى الوغى
يا ويحهم القوا صدور رماح

ومضوا بسر الختم(٣) بعد صفيه
رب اللواء الأبيض الوضاح

للسجن للتشريد لا لجريرة
ما الذود عن أوطانهم بجناح

أن خلد التاريخ ذكر بطولة
للعاملين فما لهم من ماحى

أما عن المعلمين المصريين والموظفين المدنيين الآخرين فقد أصدر السكرتير الادارى البريطانى وكان بمثابة وزير الداخلية أمرا بطردهم جميعا من الخدمة وايعادهم الى مصر ٠

ولم يسمح للمعلمين المصريين الدخول للسودان الا بموافقة سلطات الأمن وبعد أن يكتبوا تعهدا للعمل فى المدارس غير الحكومية وكان جل أولئك المسموح لهم من المسيحيين المصريين ٠

لقد كان المعلمون المصريون لا سيما الازهريون منهم كما وصفهم أحد (٤) المؤرخين السودانيين أعمدة التعليم فى السودان ٠

---

(١) بشير هو بشير عبد الرحمن أحد الطلاب السودانيين الذى أتى مصر وتوفيق البكرى والدرديرى أحمد اسماعيل لتلقى التعليم فى مصر ٠

(٢) الأربعة هم الضباط الذين حكم عليهم بالاعدام بعد ملحمتهم العسكرية فى نوفمبر ١٩٢٤ وفيهم الضابط الذى قاد الملحمة وقتل فيها ٠

(٣) سر الختم شقيق الشاعر ورب اللواء هو المناضل على عبد اللطيف ٠

(٤) ضرار صالح ضرار ـ تاريخ السودان الحديث ص ٢٣٣ ٠

● التعليم الدينى

لجنة العلماء السودانيين :

فى عام ١٩٠١ أى بعد سنتين من اتفاقية الحكم الثنائى بين بريطانيا ومصر عين الحاكم العام البريطانى لجنة من بعض علماء السودان تكون مهمتهم استشارية له كما ورد فى الخطاب أدناه الذى أرسل لأعضاء اللجنة .

حضرة :

انه نظرا لما أحرزتموه من ثقتنا بكم ووثوقنا بعالميتكم وفضلكم قد ارتحنا الى انتخابكم لتكونوا عضوا للجنة الرئيسية لجماعة العلماء فى جامع أم درمان التى يكون من اختصاصها مباشرة تدريس العلم الشريف فى الجامع المذكور وللنظر فى تقرير من يصلح للتدريس بهذا الجامع وفى شئون الطلبة فيه وتكون أيضا موضع استشارتنا ورؤساء الحكومة السودانية فقط فى الشؤون الدينية وكل ما يختص بالعلم والعلماء دون أن تكون مكلفة بأن تبتكر النظر فى أى موضوع من تلقاء نفسها بل متى عرض عليها من قبلنا أو من أى رؤساء الحكومة أمر من هذا القبيل كان عليها أن تحرر قرارها بما تراه وتقدمه لجهة الاقتضاء التى لها الخيار بموجب ما تقرره اللجنة وعلى اللجنة الا تهمل احاطة الحكومة السودانية علما بكل ما يحدث من الحوادث التى يهم الحكومة الاطلاع عليها دينية كانت أم علمية على السواء وبالاجمال بكل ما يتعلق بالعلم والعلماء وطلاب العلم .

ولنا الأمل الوطيد فى أن تقوموا بهذه المهمة التى عهدت اليكم أحسن قيام يكون من نتائجها ترقية شأن العلم وطالبيه وصيانة الشعائر الدينية فان ذلك هو الغرض الذى ترمى اليه الحكومة الساعية فيما فيه سعادة البلاد وأهلها ٠

تحريرا فى الخرطوم فى ١٣ يونيو ١٩٠١ م الموافق ٢٦ صفر ١٣١٩هـ

ونجيت

سردار وحاكم السودان العام

وتكوين هذه اللجنة من علماء الاسلام فى البلاد والاستعانة بها فى مهمتها التى انيطت بها يعيد الى الأذهان ما فعله محمد على باشا حينما أرسل ثلاثة من علماء الأزهر كل يمثل مذهبا من المذاهب الثلاثة المالكى والشافعى والحنفى فى مقدمة جيشه الذى غزا به السودان كما ذكرنا من قبل ٠

كانت لجنة العلماء تلك التى عينها الحاكم العام تتكون من الشيخ محمد البدوى رئيسا لها وقد ورد ذكره سابقا ٠

ومن أعضائها :

الشيخ النذير خالد :

وكان قاضيا للقضاة فى آخر حكم المهدية (١٨٨٥ ــ ١٨٩٨ م) وقد تلقى علومه على الشيخ الأمين العزيز كبير علماء السودان آنذاك وعلى العالم الشيخ حسين المجدى الدمياطى متخرج الأزهر ٠

كان الشيخ أمين قراعة قاضى القضاة المصرى فى السودان يزور الشيخ النذير مرارا ويشهد بعضا من دروسه ويصر على الجلوس مع الطلاب ويروى أنه كان يقول « لم أر رجلا عالما مثل الشيخ النذير ٠٠ » اتصل بالامام محمد عبده عند زيارته للسودان وناقشه فى كثير من المسائل الفقهية ٠

الشيخ محمد عبد الماجد :

درس على عدد من العلماء فقد حفظ القرآن على أبيه الشيخ عبد الماجد فى سنار ومنهم العالم أحمد بن ابراهيم بن عيسى الأنصارى وعن العلامة الشيخ محمد ود الجبيل العمرابى اللذين ورد ذكرهما ومنهم

الشيخ عبد الله الخراصانى من تلاميذ جمال الدين الأفغانى وكان الشيخ محمد ينوى السفر للأزهر ولكن ظروفا عائلية حالت دون ذلك .

بنى الشيخ محمد عبد الماجد جامعا فى أم درمان وكان يدرس فيه العلم وتخرج عليه عدد كبير من علماء السودان ولم ينقطع عن التدريس ابدا الى أن توفى عام ١٩٢٩ . كان يدرس شرح العلامة الدردير على مختصر خليل المالكى وكان يختمه للطلاب مرة كل سنة كما كان يدرس ألفية بن مالك فى النحو من شرح بن عقيل ويعقبها أحيانا بشرح التلخيص والسمرقندية والجوهر المكنون فى علم البيان وأحيانا يشرح جمع الجوامع فى علم الأصول وبالتهذيب فى علم المنطق والكافى فى علمى العروض والقوافى ويشرح نظم المقولات للعلامة السباعى وكان يدرس الرسالة بشرح أبى الحسن وتفسير الجلالين بحاشية الصاوى وكان أيضا يدرس كتبا فى فقه الشافعية والحنفية وغيرها واستمر جامعه هذا يتوافد عليه الطلاب الى يومنا هذا وقد تولى بنوه التدريس فيه من بعده وخاصة ابنه العلامة الراحل الشيخ خليل .

الشيخ ابراهيم شريف الدولابى :

الذى سبق ذكره آنفا .

الشيخ محمد الأمين الضرير :

وهو ابن الشيخ الأمين الضرير كبير علماء السودان فى آخر فترة الحكم التركى درس الشيخ محمد على العالم المصرى الأزهرى الشيخ حسين المجدى الدمياطى فى الخرطوم وعلى الشيخ محمد البدوى متخرج الأزهر وشيخ الاسلام فى السودان وكان عالما فى الفقه والتفسير والنحو والبلاغة والميراث وكان كثير الشبه بوالده الشيخ الأمين الضرير ويقال انه لو ولد فى زمن مضى وعاصر فقهاء المدينة لزاد عددهم به وقد وصفه أحد الشعراء(١) فى قصيدة منها :

والى محمد أنتهى علم الكتاب   وكان فى كل العلوم اماما

وقد درس عليه عدد كثير من العلماء منهم أبنه الشيخ الأمين أستاذ

---

(١) ابراهيم عبد الرزاق شيخ الاسلام الفكى الأمين الضرير ص ٦٢ .

الشريعة فى الجامعة الاسلامية والقاضى يوسف ابراهيم النور أحد علماء السودان الأفذاذ ·

الشيخ الباقر اسماعيل الولى .

وقد تلقى تعليمه على والده الشيخ اسماعيل صاحب الأثر المحمود فى نشر العلم فى غرب السودان وجبال النوبة ·

كان كل واحد من هؤلاء العلماء يقيم معهدا فى بيته للتدريس مثلما كانت العادة الجارية فى السودان منذ عدة قرون وقليل من العلماء من كان يدرس فى المسجد ·

● المعهد العلمي بالسودان

رأت تلك اللجنة المختارة من العلماء أن ترسل بعوثا سودانية الى الأزهر لزيادة حصيلة الطلاب من العلم ليعودوا لبلادهم ويتولوا مهنـة التدريس فيها غير أن الحاكم البريطانى والجنرال ونجت لم يكن راضيا على هذا الرأى اعتقادا منه بأن ذهاب السودانيين للأزهر وتلقيهم الدراسة هناك قد يجعلهم يتشربون بآراء وأفكار معادية للادارة البريطانية فى السودان ولكنه مع ذلك كان يفضل ارسالهم الى الأزهر عـلى أن يؤتى بعلماء مصريين من الأزهر للتدريس فى السودان وأخيرا اتفق على حل وسط وهو اعادة تنظيم وتطوير التعليم الدينى بجامع أم درمان الكبير ·

وبعد وفاة الشيخ محمد البدوى عام ١٩١١ م خلفه فى شياخـه العلماء الشيخ(١) أبو القاسم أحمد هاشم الذى درس فى الخرطوم على العالم الأزهرى المصرى الشيخ حسين المجدى الذى ورد ذكـره مرارا آنفا · وعند قيام الثورة المهدية التحق بها ثم عين كاتبا وكاتما لأسرار قائدها المهدى والخليفة عبد الله من بعده ·

وبعد سقوط دولة المهدية وقيام الحكم الثنائى على البلاد عـين قاضيا شرعيا وزيادة على ذلك كان يعلم الناس ويدرسهم العلوم الاسلامية فى وقت فراغه وراحته · والشيخ أبو القاسم فضلا عن علمه الجم كان أديبا وشاعرا يشار اليه بالبنان · كان أول عمل قام به الشيخ أبو القاسم

---

(١) عن تاريخ الشيخ ابى القاسم راجع النفائس فى أخبار وآثار شيخ الاسلام ابى القاسم أحمد هاشم لابنه عبد الحميد أبى القاسم ·

فى منصبه الجديد شيخا للعلماء ان جمع أولئك الذين كانوا يقومون بالتدريس فى منازلهم أو فى مساجد متفرقة جمعهم فى جامع أم درمان الكبير ودعا طلاب العلم لأن يؤموه ويدرسوا فيه على أولئك المعلمين وأصبح يطلق عليه المعهد العلمى ثم استصدر لائحة لتنظيم الدراسة فيه مقتبسا لها من لائحة الأزهر الشريف ووضع منهج الدراسة على غرارها وبذلك قررت دراسة جميع العلوم التى تدرس فى الأزهر فى مختلف المراحل وقد استعان الشيخ أبو القاسم بالشيخ محمد شاكر الذى كان قاضيا لقضاة السودان (١٩٠٠ ـ ١٩٠٤ م) ثم عاد الى مصر وكيلا للأزهر ٠

كانت الادارة البريطانية فى السودان تحرم على السودانيين الذهاب الى مصر لتلقى العلم هناك كما لم تسمح لعلماء الأزهر من المصريين بالتدريس فى المعهد العلمى وقد ظل المعهد العلمى منذ انشائه عام ١٩١٢ مغلقا دون الأزهر بالرغم من الحاح الشيخ أبى القاسم شيخ العلماء ومنشىء المعهد ٠

ثم خطا الشيخ أبو القاسم خطوة أخرى وهى انشاء مكتبة عربية للمعهد ولما لم تكن الادارة البريطانية توافق له بالاتصال مع مصر أو عز لابنه مدثر أبى القاسم الطالب بالأزهر آنذاك أن ينشر نداء مذيلا باسمه يهيب بالمصريين خاصة وبالمسلمين عامة للمساهمة فى انشاء المكتبة ٠ وفعلا نشر الطالب مدثر النداء باسمه فى مجلة المقطم وسرعان ما تدفقت الكتب النفيسة من الهيئات المصرية والأفراد الكرام ٠ كانت أول دفعة منها ٨٢١ مجلدا بعثت به الجمعية الخيرية المصرية واستمر تدفق الكتب النفيسة للمعهد منذ ذلك الوقت حيث حفلت المكتبة اليوم بمئات المجلدات ٠

تخرجت أول دفعة من حملة الشهادة العالمية عام ١٩٢٤ فى عهد الشيخ أبى القاسم واستمر المعهد العلمى يؤدى رسالته العلمية رغم الصعوبات والمعوقات ويتخرج منه فوج أثر فوج ٠٠ ثم أنشئت معاهد اقليمية فى أنحاء القطر بفضل همة شيخ المعهد آنذاك الشيخ أبى دقن وتعاون قضاة القضاء المصريون فيما بعد وخاصة الشيخ حسن مأمون ٠ لقد بلغ عدد هذه المعاهد اليوم أكثر من مائة معهدا ٠

فى عام ١٩٣٦ بعث طلاب المعهد بمذكرة يطالبون فيها باصلاح المناهج الدراسية وارسال البعوث الى الأزهر والاستعانة بمدرسين

مصريين من الأزهر ليقوموا بمهمة التدريس فيه وبناء أروقة لهم لسكن الطلاب القادمين من الأقاليم ولكن مذكرتهم لم تلق استجابة من قبل السلطات مما دفع الطلاب للقيام باضراب عن الدراسة ٠

وعندما اشتد ساعد الحركة الوطنية أولى قادتها اهتماما خاصا بالتعليم وحظى التعليم الدينى والمعهد العالمى بتنصيب كبير من ذلك الاهتمام فقد كان المعهد العلمى فى نظر أولئك القادة مركزا اسلاميا كبيرا بل المؤسسة الدينية المركزية لكل القطر ٠

رفع مؤتمر الخريجين العام وكان التنظيم السياسى الرئيسى فى البلاد مذكرة فى يوم ٢٦ أبريل عام ١٩٣٩ نادى فيها باصلاح المناهج ومنح الطلاب شهادة عالميه كشهادة الأزهر والاتصال المتين بالأزهر (١) الشريف وتشييد بيت لسكن الطلاب وقيام لجنة عليا لادارة المعهد وأخيرا اقترحت المذكرة الاتصال بالأزهر ليتولى ادارة المعهد والصرف عليه اذا لم تستطع الحكومة الاستجابة لتلك المطالب ـ كذلك تحرك طلاب المعهد ومشيخته يؤيدون مذكرة المؤتمر كما بعث علماء السودان بمذكرة تشمل نفس المطالب تقريبا ولم يكن أمام الحكومة الا أن تهتم بتلك المذكرات فقبلت مبدئيا بعض ما جاء فيها كاعادة تنظيم المعهد وتعيين لجنة لادارته ومضاعفة الميزانية المخصصة له والاستعانة بمدرسين من الازهر ولكنها رفضت اقتراح بناء بيت للطلاب كما رفضت رفضا باتا أن يكون المعهد العلمى تابعا للأزهر مثلما اقترحت مذكرة المؤتمر ٠

وفى عام ١٩٤٣ انتدب فضيلة الشيخ محمد المبارك عبد الله الأستاذ السودانى فى كليات الأزهر للعمل فى القسم العالى بالمعهد ولمعاونة شيخ علماء السودان على النهوض بالحركة التعليمية فيه ٠ استمر الشيخ محمد المبارك يضطلع بمهمته فى مساعدة شيخ العلماء منتدبا من الأزهر الشريف منذ عام ١٩٤٣ الى عام ١٩٥٣ وقد ظهر جليا أثر الشيخ المبارك فى تقدم المعهد العلمى ونهضته الحديثة ٠

وفى هذه الفترة من الزمن وعلى أثر مطالب الحركة الوطنية واهتمامها بشئون المعهد العلمى قدمت السودان فى أواخر عام ١٩٤٧ بعثة مصر مكونة من خمسة من أوائل الشهادات الأزهرية وخيرة مدرسيه للعمل بالتدريس فى المعهد العلمى ٠ وكانت أول بعثة علمية

(١) محمد عمر بشير ـ تطور التعليم فى السودان ص ٢٨٦ ٠

للمعهد أي بعد أكثر من ثلاثين عاما من انشائه عام ١٩١٢ وانفتح الباب الذى ظل مغلقا أمام أساتذة الأزهر للعمل فى السودان فتوالت عليه بعوث الأزهر .

وفى عام ١٩٥٦ أعيد انتداب الشيخ المبارك من الأزهر الى المعهد العلمى شيخا للعلماء وفى عهده تطور المعهد وخطا خطوات واسعة فى سبيل التقدم ويعتبر الشيخ المبارك ثانى اثنين من علماء السودان اللذين لهما الفضل الأكبر فى تاريخ المعهد العلمى هذه المؤسسة الدينية الكبرى هما الشيخ أبو القاسم مؤسس المعهد وواضع لبنته والشيخ محمد المبارك عبد الله صاحب اصلاحه وتطوره وشموخه حتى أصبح جامعة اسلامية كبرى .

لقد تولى مشيخة العلماء فى السودان أصحاب الفضيلة :

الشيخ محمد البدوى	من عام ١٩٠١ الى ١٩١١
« أبو القاسم أحمد هاشم مؤسس المعهد	من ١٩١٢ الى ١٩٣٢
« أحمد محمد أبو دقن	من ١٩٣٢ الى ١٩٣٨
« أحمد الهاشمى دفع الله منتدبا بالانابة	من ١٩٣٨ الى ١٩٤٣
« أبو شامة عبد المحمود	من ١٩٤٣ الى ١٩٥١
« هاشم أبو القاسم	من ١٩٥١ الى ١٩٥٥
« الأمين محمد الأمين الضرير بالانابة	من ١٩٥٥ الى ١٩٥٦
« محمد المبارك عبد الله	من ١٩٥٦ الى ١٩٦٣

وكلهم أما تخرجوا فى الأزهر كالشيخين محمد البدوى وهاشم أبى القاسم ومحمد المبارك عبد الله أو ممن درسوا على متخرجين من الأزهر كبقية الشيوخ الأفاضل – وجدير بالذكر كان شيخ العلماء هو فى نفس الوقت شيخ المعهد العلمى .

وهكذا أخذ المعهد العلمى ذلك الطور الشامخ يحمل المشعل ويؤدى رسالته العلمية ويتخرج فيه من نوابغ البلاد وعلمائها رجال تبوأوا منزلة كبرى فيها وأسهموا فى نهضتها الوطنية والثقافية كالأزهر تماما وليس هذا هو المجال لاحصاء أولئك فمدرسو اللغة العربية والدين فى المدارس الثانوية والكثير من مديريها وبعض القضاة الشرعين وكتبة المحاكم وغيرهم من خريجى المعهد .

وفى كل أطوار تقدم المعهد منذ انشائه كان لأصحاب الفضيلــــة العلماء المصريين الذين شغلوا منصب قاضي القضاة دور ملحوظ خاصة الشيوخ محمد شاكر ومصطفى المراعي وحسن مأمون وظلوا على اتصال به حتى بعد مغادرتهم البلاد اذ كانوا يقدمون له كل عون من هناك ٠

ومن هنا يتضح لنا جليا أثر الأزهر ومتخرجيه وبعوثه العلمية فى تقدم المعهد والحركة الدينية فى السودان وانى لانقل بالحرف الواحد ما كتبه العالم (١) السودانى الأزهرى محمد المبارك عبد الله فى كتابه « مذكرات وذكريات فى معهد أم درمان العلمى ـ طالبا واستاذا وشيخا للعلماء » عن أثر البعوث الأزهرية فى نهضة المعهد ٠

٠٠٠ كانوا أهم العوامل فى نهضة المعهد الحديثة وتطـويره الى جامعة أسهموا فى تعديل المناهج وطرق التدريس ونظام الامتحـــانات وادخلوا الأعمال التحريرية والتطبيقية وانعشوا المحاضرة والخطابـــة والانشاء وأفاد المعهد منهم خيرا كثيرا ـ وأفاد منهم شباب المدربين الذين آخوهم وأحبوهم وتعاونوا على رفع مستوى الدراسة بالمعهد فضلا عن طلاب المعهد كما أفاد المجتمع الســودانى منهم ثقافة عامة فى المعـــارف الاسلامية والعربية وتوجيها وتوعية وتبصرة بالدين ومقاصده بما كان لهم من محاضرات وندوات فى الأندية وأحاديث ودروس فى الاجتماعات الخاصة وبما كان لهم فى الصحافة والاذاعة من مقالات وكلمات ثم توالت البعوث بعدهم من الأزهر واتصل المعهد به اتصالا وثيقا » ٠

هذا ولم تقف رسالة المعهد العلمى على السودان وحسب بل وفد اليه طلاب العلم من كثير من البلاد الافريقية من الصــــومال ويوغنــدة والسنغال والسودان الغربى وأثيوبيا وارتريا ودرسوا فيه وارتووا من منهله وعادوا الى بلادهم ينقلون علمهم وخبرتهم لأهليهم هناك وحقيقـة كان السودان منذ القرن السادس عشر الميلادى قبلة لطلاب العـلم فى جوامعه وخلاويه من البلاد الأفريقية المجاورة ٠

---

(١) محمد المبارك عبد الله ٠ مذكرات ص ٥٠ ٠

● جامعة أم درمان الاسلامية

أخذ معهد أم درمان العلمي يسير خطوة الى الأمام تلو الأخرى منذ انشائه عام ١٩١٢ كما ذكرنا حتى اكتملت له مراحله الثلاثة — الابتدائية والثانوية والعالية وكان منذ أنشائه يستوحى الأزهر الشريف ويستمد من قيضه الثر فأصلح برامجه التعليمية وما فتىء يعمل على تطوير القسم العالى الى كليات للتخصص فى شتى فروع الثقافية الاسلامية فأنشأ عام ١٩٥٧ قسمين ، أحدهما للشريعة الاسلامية وآخر للغة العربية مستعينا بأساتذة أجلاء من علماء الازهر الشريف وما لبث القسم العالى أن تطور الى كلية اسلامية عام ١٩٦٣ م

ثم ارتقى فأصبح جامعة اسلامية وقد حدد قانونها الصادر عام ١٩٧٠ م وظيفتها فى الآتى : (١) .

١ — تعمل الجامعة الاسلامية على بناء الذات السودانية بدراسة التراث العربى الاسلامى واثراء الحياة السودانية بمحتويات الحضارة العربية الاسلامية وتوظيف خصائصها لخدمة المجتمع السودانى ودراسة اللغة العربية وعلومها .

٢ — تقوم الجامعة بتدريس الطلاب للقيام بأية واجبات تخصصية فى ميادين اللغة والدين والقانون والادارة وفى الدور الذى يخصصه لها المجلس القومى .

---

(١) تقديم الجامعة الاسلامية .

٣ ـ تقوم الجامعة في اطار برامج الدولة بالبحث الاكاديمي والنظر في قضايا المجتمع من خلال المنطلقات الفكرية الاسلامية المتفاعلة مع احتياجات البيئة .

٤ ـ ترعى الجامعة في اطار خط الدولة حركة نشر واحياءالتراث الاسلامي في القارة الافريقية وتقيم روابط التعاون مع مختلف المؤسسات النظيرة في العالم الاسلامي .

وهكذا قامت جامعة ام درمان الاسلامية وكان للازهر وأساتذته فضل واثر لا يجمد وتحققت بذلك الامنية التي كانت تعمل في ضمير الامة والتي كان أول من نادى بها فضيلة الشيخ محمد الامين قراعة قاضي القضاة المصري على السودان (١٩١٩ ـ ١٩٣٢) منذ عام ١٩١١ في خطاب أرسله لفضيلة الشيخ أبي القاسم أحمد هاشم عندما عين شيخا لعلماء السودان وكانت تربطه به صداقة ومودة يقول الشيخ قراعة في خطابه :

« اهنيئك بالمنصب الذي صادف اهله وكاني انظر اليك في مقبل الايام القريبة وقد انشأت بالسودان جامعة اسلامية على غرار الازهر الشريف تمد هذا البلد بعلماء شربوا من منهلك العذب الصافي وتحلوا باخلاقك أخلاق العلماء (١) .

هذا وقد أختير الدكتور كامل الباقر أول مدير للجامعة الاسلامية وهو حفيد الشيخ اسماعيل الولي ومن أسرة درس اقطابها في الازهر كما ذكرنا وكان والده مدرسا في معهد ام درمان العلمي ، كما درس هو نفسه في ذلك المعهد وتخرج في كليات الازهر وواصل تعليمه في كليات بريطانيا حيث حصل على الدكتوراه ـ لقد وضع الدكتور كامل الباقر أسسها وتقاليدها ودفع بها قدما حتى اصبحت اليوم جامعة كبرى مثل مثيلاتها في السودان والبلاد الاخرى .

---

(١) عبد الحميد أبو القاسم ـ النفائس في أخبار وآثار شيخ الاسلام أبي القاسم أحمد هاشم .

● يد الأزهر البيضاء تمتد
الى نيجيريا عبر السودان

العلماء السودانيون فى كانو

لم يقتصر أثر كلية غردون وفضل أساتذتها المصريين فى توجيه الطلاب السودانيين توجيها علميا صحيحا بانه ليس ثمة تعارض بين الدين والتعليم النظامى العلمانى ولا على فتحها لآفاق جديدة نحو الثقافة الاسلامية ولم يقف ذلك الأثر على السودان بل امتد ليستظل بظله المسلمون فى نيجيريا .

كان هناك تشابه كبير بين السودان ونيجيريا فالمسلمون أغلبية فى كلا البلدين ويسكنون مناطق معروفة ثم كان البلدان يرزحان تحت سيطرة الحاكم البريطانى كما شهد تاريخهما ثورات دينية جادة اتخذت طابع الجهاد باسم الدين ففى غرب أفريقيا وشمال نيجيريا قامت ثورة الجهاد التى أعلنها عثمان ذاك فوديو وسلالته من بعده فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما نشبت ثورة مماثلة فى السودان بقيادة محمد أحمد المهدى فى آخر القرن التاسع عشر .

وعلى مر الأجيال كانت الصلة قوية بين السودان ونيجيريا وغرب أفريقيا فقد كانت جموع الحجيج تأتى منها ميممة الأراضى المقدسة عبر السودان وكان منهم من أقام فى السودان كما كان بعض من العلماء السودانيين من سنار يذهبون الى هناك بدعوة من سلاطينها وحكامها ليعلموا الناس تعليما دينيا ولذلك ظل السودان منذ تاريخه القديم والى

يومنا هذا أحد مجارى الثقافة الى غرب أفريقيا وكانت وما زالت الهجرة منه واليه وغيره قائمة اما طلبا للعلم أو السفر الى الأراضي المقدسة وغيرها من الأسباب ٠

وعندما وقعت نيجيريا تحت نير الحكم البريطاني قطع (١) الحكم المستعمرون عهدا مع المسلمين فى نيجيريا على الا يتدخلوا فى شئونهم الدينية وألا يسمحوا للتبشير المسيحى ليقوم بنشاط فى بلادهم خشية منهم أن تنشب ثورات دينية أخرى وتتأثر مصالح بريطانيا الاستعمارية من جرائها وكانوا قد طبقوا عليهم سياسة الحكم غير المباشر التى ابتدعها اللورد فرد ريك لوقارد الذى كان حاكما عاما على نيجيريا ٠

وهنا وبعد الاتفاق بين الادارتين الاستعمارية فى السودان ونيجيريا رؤى ان يستفاد من خبرة المعلمين والقضاة السودانيين الذين تخرجوا فى كلية غردون فى اللغة العربية فارسلت أول بعثة من المعلمين وكانت تتكون من السادة الأساتذة محمد عثمان ميرغني وعبد العال حمور ومحمد نور سيد أحمد وكان كل هؤلاء الأساتذة من الذين تلقوا علومهم على يد معلمين مصريين متخرجين من الأزهر ٠

اضطلعت تلك البعثة بوضع أسس تعليم نظامى علمانى تدرس فيه العلوم العصرية جنبا الى جنب مع دروس اللغة العربية والدين وكان المواطنون هناك يدرسون علوما دينية فقط على أيدى مهاجرين أفريقيين وعلى أسس بدائية ٠

عادت البعثة السودانية بعد أن أدت مهمتها بنجاح وقد شدت اليها اهتمام السكان فى نيجيريا الذين طالبوا ببعثات أخرى ٠ ثم ارسلت بعثات قوامها قضاة شرعيون من السودان منذ عام ١٩٣٤ الى منتصف الستينات ٠

كانت البعثة الأولى تتكون من أصحاب الفضيلة البشير الريح ومحمد صالح سوار الدهب والنور التنقارى وهؤلاء جميعهم من متخرجى مدرسة القضاء الشرعى فى كلية غردون التى اقترح فكرتها فضيلة الشيخ محمد شاكر قاضي القضاة المصرى (١٩٠٠ ـ ١٩٠٤) وقد درس هؤلاء

---

(١) د٠ حسين ابراهيم حسن ٠ انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية ص ٢٥٤ نقلا عن تاريخ نيجريا لبيرنز ٠

القضاه على أساتذة مصريين من الأزهر هم الشيوخ الجداوى والشرقاوى والمراغى أخو الشيخ مصطفى المراغى .

وتوالت بعثات القضاة الشرعيين الى شـــمال نيجيريا وظل الشيخ البشير الريح قطب رحاها منذ عام ١٩٣٤ . وثقة فى تلك البعثات واعترافا بفضلها اختير أحد أفرادها وهو الشيخ عوض محمد أحمد ليصبح قاضى لقضاة شمال نيجيريا .

لقد أدت تلك البعثات مهامتها بجد واخلاص مما جعل سكان شمال نيجيريا يلهجون بذكرهم والثناء عليهم مثل ما فعـل السودانيون مع أساتذتهم المصريين . كما ذكرنا فى مجال آخـر . لقد فتحوا فى مدينة كانو مدرسة العلوم العربية تدرس فيها اللغة العربية والشريعة الاسلامية والدين ليتخرج منها قضاة للمحاكم الشرعية ومدرسين للغة العربية والدين فى المدارس الحكومية وأصبح بفضل تلك المدرســة كل قضــاة شمال نيجيريا ومدرســيها من خريجيهـــا واوقف تعيين المهاجـرين والمعلمين المحليين .

لقد أدى المعلمون والقضاة السودانيون الذين درسوا فى كلية غردون فى الخرطوم على أيدى علماء مصريين من الأزهر نفس الدور الذى قام به العلماء المصريون فى السودان . وهو التوفيق بين الدين ومطالب الحياة العصرية وهذا هو جوهر دعوة الامام محمد عبده وغدت بذلك كانو عاصمة نيجيريا مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية فى غرب أفريقيا بعد ان تأهل علماؤها وتسلموا الأمانة بأنفسهم .

● احصائية عددية عن الطلاب السودانيين فى الأزهر

أقبل الطلاب المسلمون على الأزهر باعتباره قبلتهم العلمية وكما قال شوقى :

ان الذى جعل العتيق مثابه   جعل الكنانى المبارك كوثرا
العلم فيه مناهلا ومجانيا   يأتى اليه النزاع يبغون القرى
يافتية المعمور سار حديثكم   ندا بأفواه الدروب وعنبرا

لا نعرف على وجه التحقيق تاريخ دخول السودانين للأزهر حيث لا تتوفر أدنى معلومات عنهم وعن غيرهم من الطلاب الوافدين ولكنهم منذ أن عرفوا طريق الازهر وفدوا اليه وجاوروه وكان مما شجع هؤلاء المجاورين واؤلئك من البلاد الاسلامية بناء أروقة أعدت لسكن الطلاب البعيدين من القاهرة والوافدين من البلاد الأخرى ۰ ولعل أقدم حديث عن أولئك الطلاب وأروقتهم ما جاء فى خطط المقريزى فى القرن التاسع الهجرى – الخامس عشر الميلادى ، فقد ذكر ان عدد الطلاب الفقراء الملازمين للمسجد بلغوا فى عهده ۷۵۰ طالبا وهو هنا يشير فقط للفقراء الذين تضطرهم ظروفهم للمجاورة فى الأزهر – ثم لا نجد أى معلومات عنهم الا ما ورد فى كتاب الذيل للمقريزى تأليف عبد الحميد نافع فى القرن التاسع عشر فى معرض ذكره عن الأروقة وعدد طلاب كل رواق والخبز المخصص لكل ۰

وعن السودان ذكر فى الذيل على المقريزى ان عدد طلابه ۸۵ طالبا ۵۰ طالبا فى رواق سنار و ۳۵ فى رواق الدكارنه ويقصد دارفور ۰

لم نستطع الحصول على احصائية كاملة بعـدد الطـلاب السودانيين فى الأزهر منذ آمد بعيد فقد كانت حلقـات الدراسـة مفتوحة لكل طالب ولم تكن هناك سجلات تقيد عدد الطلاب والاحصائيات أدناه توضح عدد الطلاب السودانيين المقيدين فى سـنوات متفرقة وهى بالرغم من انها لا تحوى سجلا كاملا لعددهم الا انها تلقى ضـوءا على كثرتهم مقارنة بالطلاب العرب من البلاد الأخرى ٠

فى عام ١٩٤٣ بلغ عدد الطلاب المقبولين فى(١) المدارس المصرية كالآتى :

٣٦ طالبا فى الجامعة
٩٥ المدارس الثانوية
٤٦٣ الأزهـر

٥٩٤ المجمـوع

وفى عام ١٩٤٥ أسست الحـكومة المصرية بيتـا لاقامة الطلاب السودانيين فى القاهـرة مع منحهم اعانات شـهرية مما شجع الشباب السودانى للهجرة الى مصر طلبا للعلم وكان عددهم ٠

٢٩٨ فى جامعتى فؤاد وفاروق (القاهرة والاسكندرية اليوم)
٢٥ المعاهد العليـا
٤٦٦ الأزهـر

٨٧٨(٢) المجمـوع

(١) محمد عمر بشير - تطور التعليم فى السودان ص ٢٩٩ ٠
(٢) نفس المصدر ص ٣٠٧ ٠

عدد الطلاب الوافدين
على الأزهر الشريف

من البلاد العربية والبلاد الأخرى

العام	السودان	البلاد العربية	البلاد الاخرى	مجموع الوافدين	نسبة السودانين
٥١/٥٢	١٠٠٠	٩٠٢	٦٤٦	٢٥٤٨	٣٩ر٢٥٪
٥٢/٥٣	١٣٠٠	٩٠٢	٦٤٦	٢٨٤٨	٤٥ر٦٥٪
٥٣/٥٤	٢٤١٥	٩١٢	٧٥٥	٤٠٨٢	٥٩ر١٦٪
٥٤/٥٥	٢٤٤١	١٠١٨	٨٣٢	٤٢٩١	٥٦ر٨٩٪
٥٥/٥٦	١٥٠٠	١٠٠٩	٧٨٤	٣٢٩٣	٤٥ر٥٥٪
٥٦/٥٧	١٥٠٠	٧٥٧	٨١٥	٣٠٧٢	٤٨ر٨٣٪
٥٧/٥٨	١١١٥	٦٢٤	٧٨٨	٢٥٢٧	٤١ر١٢٪
٥٨//٥٩	١٠٤٧	٧٣٥	١٠٠٦	٢٧٨٨	٣٧ر٥٥٪
٥٩/٦٠	١٠٥٤	٧٩٤	١٠٨٢	٢٩٣٠	٣٥ر٩٧٪
٦٠/٦١	٩٧٦	٨٥٤	١١٨٧	٣٠١٧	٣٢ر٣٥٪
٦١/٦٢	٧٣٣	٧٨٧	١٢٠٥	٢٧٢٥	٢٧ر٥٣٪
٦٢/٦٣	٦٠٤	٨٣٦	١٤٤٤	٢٨٨٤	٢٠ر٩٤٪
٦٣/٦٤	٦٦٤	٩٩٤	١٩٦٨	٣٦٢٦	١٨ر٣١٪

ويلاحظ تناقص عدد الطلاب السودانيين منذ عام ٥٦/٥٧ اذ كان عددهم ١٥٠٠ الى ٦٦٤ فى عام ٦٣/٦٤ والسبب فى ذلك تحويل بعضهم الى المعاهد الدينية التى افتتحت فى السودان آنذاك .

(١) الأزهر تاريخه وتطوره ـ الأوقاف ـ ص ٥٧٠/٥٧٤ .

الطلاب السودانيون وغيرهم

جامعة الأزهر
عام ١٩٦٣/١٩٦٤
كلية الشريعة

	الفرق الدراسية (١)	(٢)	(٣)	(٤)	المجموع
السودان	٤	١٩	٢٧	٢٦	٧٦
الدول العربية	٤٠	٤٤	١٦	٢٦	١٢٦
دول أخرى	٣٥	٢١	٣٤	٢٣	١١٣
	٧٩	٨٤	٧٧	٧٥	٣١٥

نسبة الطلاب السودانيين لطلاب البلاد العربية = ٦٠٪

نسبة الطلاب السودانين لكل الطلاب الوافدين = ٢٤٪

كلية الدراسات العربية

	(١)	(٢)	(٣)	(٤)	المجموع
السودان	٤٣	٧٢	٥٢	٥٨	٢٢٥
الدول العربية	٥١	٤٨	٢٨	١٤	١٤١
دول أخرى	١٨	٤	٢	٤	٢٨
	١١٢	١٢٤	٨٢	٧٦	٣٩٤

(١) الأزهر ــ تاريخه وتطوره ــ ص ٥٧٧ .

نسبة الطلاب السودانين لطلاب البلاد العربية = ٥ر١٥٩٪

نسبة الطلاب السودانين لكل الطلاب الوافدين = ٥٧٪

كلية أصول الدين

السودان	١٩	١٢	٥	١٦	٥٢
الدول العربية	١١	٣	٢	١	١٧
دول أخرى	٢١	١١	١٩	١٥	٦٦
	٥١	٢٦	٢٦	٣٢	١٣٥

نسبة الطلاب السودانين لطلاب البلاد العربية = ٨ر٣٠٥٪

نسبة الطلاب السودانين للطلاب الوافدين = ٥ر٣٨٪

بلغ عدد الطلاب السودانيين فى عام ٨٣/٨٢ فى كليات الأزهر ـ علمية ونظرية ـ ١٢٤٥ طالبا ٠

ومن الملاحظ ان عددا كبيرا من الطلاب السودانيين تلقوا ويتلقون العلم فى الأزهر منذ القدم والى يومنا هذا ولعله مما يلفت النظر النسبة الكبرى للطلاب السودانيين بالمقارنة مع غيرهم من الطلاب فقد ظل الازهر كعبة العلم يهاجر اليهـا الطلاب من السودانيين وظلت مصر كطبعهـا دائما أبدا تفتح زراعيها حانية عطوف لهم ولغيرهم فى أزهرها ومعاهدها العلمية ٠

هذا ويخصص الأزهر زيادة على ذلك منحا دراسية للطلاب السودانيين من الجنوب وجبال النوبة وهى المناطق التى يغلب على أهلها الوثنية وقليل منهم المسيحية حيث تقوم الارساليات المسيحية بنشاط وافر هناك ٠

والآن ينتظم الطلاب الوافدون بما فيهم السودانيون فى الدراسة ويقيمون فى مدينـــة انشئت خصيصـا لاقامتهم وانتقالهم من الاروقه العتيقة ولا يخفى على القارىء الأثر الكبير الذى تحدثه هذه المدينـة فى لم شملهم وتعاونهم وتعارفهم فى مجتمع علمى مثالى وبذلك تخدم غرضا اسمى وهو تدعيم الروابط بين الشعوب وتوثيقها ٠

أقبل الطلاب السودانيون فى الأزهــر على الدرس والتحصـــيل بجد واجتهاد منذ أن عرفوه والتحقوا به٠ ووصفت مجلة الوقائع المصرية بعض الذين كانوا يترددون عليها فهم بانهم غاية التهذيب والنجابه والاستقامة٠ وكذلك ما جاء في الانجازات التى منحها لهم أساتذتهم من علماء الأزهر ٠

كما قال عنهم أستاذ مصرى(١) :

« والحق أنه كلما حدث أى اتصال بين أبناء السودان وغيرهم من مثقفى أبناء العرب كان الأولون سباقين للاستفادة والتعليم ٠٠٠٠

هذا وقد تولى بعض منهم مهنة التدريس فى الأزهر نذكر منهم على مختلف العصور ٠

الشيخ محمد بن أحمد البدوى(٢) :

وهو حفيد الشيخ عيسى بن بشارة الانصارى الخزرجى عميد الأسرة المعروفة فى أرض الجزيرة فى الاقليم الأوسط فى السودان ٠ كان الشيخ محمد ووالده الشيخ أحمد البدوى يواصلان دراستهما معا فى الأزهر على علمائه ونذكر من أولئك العلماء الشيخ ابراهيم الباجورى الشافعى شيخ الأزهــر المتوفى عام ١٢٧٧ هـ/ ١٨٦٠ م والشيخ أحمــد جبلى الحنفى والشـــيخ عليش المالكى المتوفى ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م وقد منح الشـــيخ محمد ووالده أجازات مشتركة من أساتذتهم ما عدا الشيخ عليش فقد منح كلا منهما أجازة مستقلة ٠

وتدل هذه الأجازات ان الشيخ محمد ووالده تفقهــا فى المذاهب الثلاثة الشافعى والحنفى والمالكى ٠

لقد عمل الشيخ محمد مدرسا فى الأزهر وظل فى وظيفته تلك نحو ثمان سنوات حيث توفى فى مصر ٠

ومن السودانيين الذين تولوا مهنة للتدريس فى الازهر الشيخان أحمد الازهرى وابن أخته اســـماعيل عبد القادر الكردفانى اللذين ورد ذكرهما آنفا ٠

---

(١) د٠ عبد العزيز عبد المجيد ـ التربية فى السودان ج ٢ ص ٣٧ ٠
(٢) عز الدين الأمين ـ قرية لترانج وأثرها العلمى فى السودان ص ٧٤ ٠

ومنهم الشيخ محمد نور الحسن :

ويعرف فى الأزهر بالشيخ نور وهو من أسرة دينية معروفة فى السودان نزح الى الأزهر فى عام ١٩١٢ وأكمل تعليمه فيه وبرع أساسا فى علوم اللغة العربية ٠ وكان زميلا للشيخين شلتوت وعبد اللطيف دراز فى الدراسة ٠

اختير مدرسا فى الأزهر ثم وكيلا له كما كان عضوا فى المجمع اللغوى وتوفى فى مصر عام ١٩٧١ ودفن فى مصر مع الشيخ شلتوت بناء على وصيته ٠

الشيخ محمد المبارك عبد الله :

ولد فى أم درمان عام ١٩٠٥ وبعد ان حفظ القرآن فى الخلوة فى العاشرة والتحق بالمعهد العلمى فى أم درمان ثم سافر الى مصر والتحق بالأزهر عام ١٩٢٣ على نحـو ما ذكـر هو فى وصفه لرحلتـه الى مصر وحصـل على شـهادة التخصص القديم فى عام ١٩٣١ وهى ما تعـادل الدكتوراه ٠

عين مدرسـا فى الأزهر وانتدب الى السودان للتدريس فى المعهد العلمى وكلية الدراسات الاسلامية على نحو ما ذكرنا سابقا ٠

● شعراء السودان يلهجون بذكر أساتذتهم المصريين

حفظ السودانيون ذلك الصنع والعمل الجليل فى قلوبهم بكثير من الامتنان وحفظ الجميل وتغنى بذلك الفضل شعراؤهم وكتابهم وانى لأسوق مثلا لذلك العرفان بالجميل أبياتا من شعر بعض ممن درسوا على أولئك الأساتذة ٠

يقول الاستاذ عبد الله عبد الرحمن فى قصيدته « العروبة » مشيرا الى أساتذته المصريين ذاكرا محاسنهم وفضلهم على بلاده وأثرهم الواضح فى رفعتها ونهضتها ٠

وكانت لنا فى غابر الأمس نهضة
مباركة لا اللهو منها ولا الدد
فعبد الرءوف والخطيب كلاهما
له بيننا الفضل الذى ليس يجحد
هما حركامنا النفوس وانشرا
علوما على أضوائها اليوم نصعد
وطالما هزا النفوس بطيب
من القول يرضاه الوليد وأحمد
ولاحا على الخرطوم نجمى معارف
به وعوادى الدهر اذ ذاك تولد

وفى اليـوم قـد شابت وشب وليدها
ومارسـهـا منـا كبـير وامـرد
وذلك عهـد قـد سـعدنا بظـله
لـوان الكريم الحر فى الـدهر يسعد
فآليت لا انسى لـه فضـل نعدـه
عـلى وللاحسـان منى ممجـد
أولئـك الكتـاب أسـاس نهضـة
وكنز ثمـين للثقـافة يرفـد
هـم العائشـون فى نفوس كثيرة
وفى كل قطـر من صنائعهم بـد
تخـيرتهم بين الانـام لفضـلهم
وأكبرتهم أن كنت للنـاس أنقـد

كما يقول فى قصيدة اخرى .

يانسـيما يختـال بـين رياض
راويـا عـن اريجهـن اعتـلاله
قف رويـدا واجمع الـزهر واحمل
لرجـال العلـوم منى رسـاله
لرجـال العـلوم فى ارض مصـر
واهبـى الضاد حسنها والجزاله
قـل لهذى الكرام يجمعها النـادى
بـدورا ويحتـويهن هـاله
لـكم الـود فى البـلاد مقيمـا
مـا اظـن الزمـان يطوى ظـلاله
انمـا مصر والعـروبة والسـودان
شـعب ابى الالـه انفصـاله

وتقتطف ابياتا من قصيدة للشاعر السودانى عبد الله حسن الكردى يتحدث فيها عن اثر المصريين ويحن لقربهم بعد ان ابعـدوا من السودان عام ١٩٢٤ م .

اهـــــرامهم فـــوق الســـــماء مكانه
وهـــم ميامـــين الـــورى اخيـــار

فى كل جـــــامعة لهـــم نشىء ســـــما
بــذكاء فـــكر طار منـه شرار

وبـــكل حـــى للمعــاهد ضـــجة
فالعـــلم بـين ربوعهم أنهـــــار

أنـى يحيـــد الفضـــل عن أوطـــانهم
والفضــــل ليس لـــه ســـواهم دار

انـى لاذكـــرهم بقلـــب واجـــــد
مـــاكر لبيـــل أو تـــلاه نهـــار

وأحـــن مثـل الثاكـــلات لقـربهم
وحنـــين مثـــلى فى البعـــاد مـــزار

ويقول الاستاذ مجذوب جلال الدين وهو يستقبل الاديب المصرى الكبير على الجارم فى مايو عام ١٩٣٧ عند زيارته للسودان فى مهمة رسمية له تتعلق بانشاء كلية اللغة العربية فيـه وكان البريطانيون قد أرادوا أن يعيدوا قدرا من العلاقات بين مصر والسـودان بعد آتفاقيـة ١٩٣٦ ٠

اتيـح الصـــــفا لاخـــــوانه
فعـــاد الشـــقيق لاوطـــانه

ولاقى المحب حبيبــا ونلنــا
نعيـــم الســـرور بلقيـــانه

وجاشـــــت صـــدور بـزفراتها
وفـــاض الفـــؤاد بتحنـــــانه

اعـــــدت لنـــا ذكريـات مضـت
لعـــد الـــرءوف واقـــــرانه

ولنفرد مجالا اوسع للاستاذ محمد سعيد العباسي الذى تغنى بفضل مصر وهزج باياديها عليه وعلى السودان وكان قد التحق بالأزهر ثم بالكلية الحربية فى مصر ودرس على العالم اللغوى عثمان زناتى وقد اهدى ديوان شعره لاستاذه ورد عليه الاستاذ زناتى بقوله :

« ولا ادرى والله كيف اعتذارى عندك فى تأخير الرد وقد طوقتنى بجملكم وشملتنى بفضلكم اذ تذكرتم استاذكم على طول العهد وبعد الشقة وانى لاطيب نفسا أن أكون تلميذا لكم فى حفظ الجميل ورعاية الود والثبات على العهد ... وقد تفضلتم بارسال كثير من قصائدكم التى يفوح منها عبير الاخلاص والتى يدل كل حرف فيها على شاعرية مطبوعة تشير كل قافية الى ذوق جميل وكل شطر الى نفس كبيرة وكل بيت الى مجد عامر وكل قصيدة الى حسن متبع من الاخلاق العالية والخصال الرقيقة .. » .

ومن قصائده العديدة فى حب مصر والتغنى بفضلها وفضل أساتذته نقتطف بعضا من الأبيات :

واهــا لمصر واوقــات ســعدت بها
لقــد تقضــت ولما اقض من ارب

يخوننى الصــبر ان غالبت دونــكم
حر اشتياقى ودمعــا جد منســكب

عندى لكم يــد فضــل لست اجحدها
يــد الزناتى مــولى العلم والحسب

سريت فى ضــوئه حينا يقوم مـن
عودى ويفســح لى من صدره الرحب

وفى قصيدة أخرى يقول :

ان يــورى عنكــم فمــا من
مــذهب الحب والوفــا أن أورى

لــو يكــون الخيار حكما لما اخترت
نزوحــا عنكــم ولا قيــد شــبر

ربى قــدر لمصــر طالع اســعاد
وهيىء لمصــر اصــلاح أمــر

ويقول فى قصيدة أخرى :

بنــو الكنــانة ما اشهى الحديث لهم
الى النفــوس ومــا اعــلاهم قيمــا

زدنى ســؤالا ازدك اليــوم معــرفة
بهــم فما كان ذو جهــل كمن علما

هم الكرام فكم فيهم اخو ثقة
حلو الشمائل تندى كفه كرما

بثوا المعارف بالسودان فازدهرت
به وشادوا منار العدل فانتظما

ولا وربك ما كانوا لنا أبدا
بقاسطين ولا كنا لهم خدما

عندى لمصر وللغر الكرام يد
والحر من بات يرعى العهد والذمما

ويقول فى قصيدة اخرى :

اسفرى بين بهجة ورشاقة
وأرينا يا مصر تلك الطلاقه

أنت للقلب مستراد وللعين
جمال وللشم باقه

أنت عندى أخت الحنيفه
ما أسماك دينا وما أجل اعتناقه

أنت ذكرتنى ولست بناس
در ثدى رضعت منك فواقه

وفى قصيدة أخرى يقول العباسى :

ولو كان لى علم ما فى غد
لما بعت مصر بسودانيه

ودعتها امس لا عن قلى
ولم تكن النفس بالساليه

لها ولابنائها الاكرمين
أياد بنابرة أسيه

بروحى وليست تهاب الردى
كبائعة دونها شاريه

فانى من غرس نعمائها
غراس هو الثمر الدانيه

وما بالقليل انتسابى لها
فانى حمادها الراويه

بنى مصر حياكموا ذو الجلال
بعرف تحياته الزاكيـة

بكم غدت اليوم أم اللغات
كحسناء فى حلل صافيه

حملتم بمصر وبالمشرقين
رسالة آدابها العاليه

بلونا الكرام فكانوا البناء
وكنتم به حجر الزاويه

ومن المناسب أن نذكر تعليق الدكتور زكى مبارك تحت (١) عنوان جانبى « نقمة سودانية » مشيرا الى قصيدة العباسى التى أهداها اليه :

« كان من توفيق الله أن نلتفت الى الادب السودانى بعض الالتفات فيه أتيحت لى فرصة للتعرف الى ما هناك من روائع لو نشرت لبهرت شعراء مصر والشام والعراق أقول هذا وأمامى قصيدة للشاعر محمد سعيد العباسى قصيده خفيفة الروح حن فيها الى أيامه فى مصر فقال :

ولو كان لى علم ما فى غد
لما بعت مصر بسودانيه

واستمر فى سرد القصيدة كاملة حتى قول العباسى :

بلونا الكرام فكانوا البناء
وكنتم به حجر الزاوية

ثم استطرد الدكتور زكى مبارك « أيها الشاعر الذى حيا مصر حياك الله وحياك فقد طوقت جيد مصر بقلائد صنعت من حبات القلوب — أهذا شعر أم سحر ؟ — هو فوق الشعر وفوق السحر — هو الهام جاءت به فطرة كريمة الأصل فى بلاد أبناؤها أصلاء ..

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٨٢ عام ١٩٤٢ نقلا عن وقفات مع العباس — عبد القادر الشيخ ادريس أبو هالة ص ٢٠٥ .

وليعرف السودانييون اننا لا نقبل ان يكونوا اوفى منا بأى حال وسنعارض هذه القصيدة بقصائد وسنريهم أن مصر تجزيهم صدقا بصدق واخلاصا باخلاص ـ أيتها الأرواح الشوارد بأعالى النيل أيها الحافظون لامجاد الاسلام بالوادى السحيق هل تعرفون مكانتكم فى أنفس المصريين » .

وهناك ممن اشادوا بفضل مصر على السودان الاستاذ احمد محمد صالح الشاعر والمربى الكبير فى كثير من قصائده نذكر بعض أبيات من احدى قصائده :

مصر وما مصر سوى
وطن القساورة والأسود
ومنارة الأدب الرفيع
وكعبة العلم المفيد
وزعيمة الشرق المفدى
فى الجهاد وفى الجهود
هى موئل للمستجير
ومنهل عذب الورود
وعلى جنوب النيل كم
فاضت اياديها بجود
جئنا وبين ضلوعنا
شوق العميد الى العميد

هذه قطوف مما جادت به قرائح بعض من شعراء السودان الذين تلقوا العلم رأسا على معلميهم المصريين فى اللغة والدين ولنذكر جزءا يسيرا من قصيدتين لشاعرين من الجيل الثانى الذى نشأ وتثقف على سودانيين درسوا على اساتذة مصريين بعد أن ابعد المصريون من السودان اثر حوادث عام ١٩٢٤ والشاعران من متخرجى المعهد العلمى فى ام درمان يقول التجانى يوسف بشير .

عادنى اليوم من حديثك يا مضرار
رئى وطوفت بى ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد ولجت
بسمات على الخواطر سكرى
انما مصر والشقيق الاخ السودان
كانا لخافق النيل صدرا

حفظا مجده القديم وشادا
منه صيتا ورفعا منه ذكرى

افلسنا الفى هوى جمعتنا
سرحة الفكر فى أواصر أخرى

كيف يا قومنا نباعد بين فكرين
شدا وساندا البعض ازرا

كيف قولوا يجانب النيل شطيه
ويجرى على شواطىء اخرى

كلما انكروا ثقافة مصر
كنت من صنعها يراعا وفكرا

جئت فى حدها عرارا فحيا
الله مستودع الثقافة مصرا

نضر (١) الله وجها فهى ما تزداد
الا بعدا على وعسرا

والابيات الآتية من قصيدة الشاعر الناصر قريب الله يستقبل بها وفدا من الكنانة فى الثلاثينات بعد قطيعة فرضها الاستعمار البريطانى بين مصر والسودان .

قال الشاعر :

هذه الامنيات ياعين قرى
واسكبى الشدو يا يراعة شعرى

فهنا الشعر يستمد قواه
من جمال على ابتسامة ثغر

يا شباب الكنانة اليوم عيد
عاد فى حلتى سرور وبشر

عادنا والقلوب ملأى اشتياقا
لم يدع شوقها مكانا لصبر

فمساعيكم التى غمرتنا
لم تعادل لذى ثناء يشكر

---

(١) كان الشاعر ينوى السفر الى مصر ولكن ظروفا اقعدته عن تحقيق مطلبه .

جعلت حبنـــا الكنـــانة فرضـــا
شـــان كف النـــدى بقلب حر

وبمصـــر لنـــا قلـــوب اقـــامت
اتحســـــونها بانحـــاء مصـــر

لمصـــر والســـودان صـــنو شـــقيق
وبـــذا النيـــل شـــاهد حيث يجـــرى

غـــير أن الســـودان عاش ربيبـــا
فى حماها فنـــال أطيب ذخـــر

فاقطعـــوا الســـن المكايد انـــا
أخـــوه فى الهنـــاء ومس الضـــر

عصـــمة الـــدين وحـــدتنا وما عـــن
عصـــمة الـــدين وحـــدها من معـــز

● هؤلاء قالوا عن
أثر الأزهر على السودان

شعر العلماء :

ـ وفى العهد التركى ظهرت طبقة العلماء واخذت تلعب دورا هاما فى الحياة الثقافية ، فقد شهد الحكم التركى نزوح أفراد قلائل الى الازهر او له ... ولعل من المهم ان نلاحظ ان بداية الشعر العربى الفصيح فى السودان كانت على يد هذه الفئة من العلماء الذين تلقوا تعليما دينيا ولغويا فى الأزهر وقضوا فترة من حياتهم خارج السودان.

د . محمد ابراهيم الشوش
فى الشعر الحديث فى السودان صفحة (١٥)

ـ أما عمق الصلة بين سنار وعلماء الازهر فأمر لا سبيل الى الجدل فيه فان اعظم علماء سنار تخرج فى الازهر الشريف .

محمد محمد على
الشعر السودانى فى المعارك السياسية
١٨٢١ ـ ١٩٢٤ م صفحة (٣٤)

ـ ولاهل السودان رغبة شديدة فى تحصيل العلوم حتى لقد يقصد بعضهم الأزهر الشريف فى مصر ويقضى السنين الطوال فى تحصيلها وقد أنشىء لهم رواق فى الأزهر منذ عهد طويل يعرف برواق

السناريين .... وكلهم عادوا الى السودان فأنشأوا فيها مدارس للعلم .

نعيم شقير
جغرافيا وتاريخ السودان صفحة (١٦٨)

ــ فالعهد التركى كان من اظلم العهود على السودان ثقافيا ولولا بيوتات العلم والدين والافراد القلائل الذين شقوا طريقهم الى الازهر الشريف وحرصوا على تلك العلوم على ايدى بعض الاساتذة العائدين من الازهر الشريف لما بقى شىء من التراث العربى .

محمد احمد محجوب
الحركة الفكرية فى السودان صفحة (١٢)

لقد ظل الازهر الشريف منارا للوعى والاشعاع لاولئك الذين كان لديهم شعف وتعلق بدراسة قواعد الدين الحنيف والفقه الاسلامى اكثر من التعلق بالروحانيات وعلم الباطن والكشف ومن ثم فان من الخطأ الزعم بان السودان كان معزولا عن العالم الخارجى أو عن مصر بصفة خاصة .

محمد عمر بشير
ــ تاريخ الحركة الوطنية فى السودان صفحة (١٥)

ولعل أول ما بدأ من علاقة ثقافية بين مصر والسودان بشكل واضح لا يخطىء كل مطلع على تاريخ هذه العلاقة كان فى العهد السنارى من مملكة الفونج الاسلامية منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى فى هذا العهد نجد الوفود من السودانيين ترد مصر قاصدة موردها العذب ذلك هو الأزهر الذى أصبح جامعة اسلامية فيهلون من العلم ما أمكنتهم ظروفهم وما وسعت قدراتهم ــ ثم نجد وفودا من العلماء المصريين يفدون الى السودان على طول الطريق وبعده متجشمين الصعاب فيقيمون فى السودان متخذين لهم تلاميذ ومعجبين من الدراسين يحيطون ويأخذون عنهم العلوم ربما يأخذون عنهم معارف أخرى عن الحياة فى مصر ولابد ان هؤلاء العلماء كانوا يشجعون تلاميذهم على الهجرة الى مصر ليأخذوا العلم

من مصدره ويردوا الحوض الروى فى مكانه فلما هم الا سواقى على شاطىء البحـــر ٠

د٠ ابراهيم الحاردلو
الرباط الثقافى بين مصر والســودان
صفحة (٥)

الذى يهمنا قبل الدخول الى الطرق الصوفية أن نذكر أن أثر مصر كان علميا أكثر منه صوفيا خالصا فكان من يذهب من السودان الى الأزهر يعود بحصيلة ممتازة من الفقه والتوحيد واللغة وكان من يهاجر من مصر الى السودان فقيها قبل أن يكون متصوفا أو فقيها متصوفا لا متصوفا فقيها فى حين ان الطابع الصوفى كان يغلب على من جاءوا من المغرب أو العراق أو الحجـــاز ٠٠٠

الدكتور عبد القادر محمود
الطوائف الصوفيـة فى الســودان
صفحة (٩)

دارفـــــور :

كان الفور ولا يزالون من أكثر سكان السودان حماسا لدينهم وكانوا فى تاريخهم الطويل اصلب المسلمين عودا أمام هجمـــات الغزاة وضربات الفاتحين ولم تلن قناتهم قط أو تفتر عزائمهم أبدا بل كانوا دائما رجال صبر وجهاد فى دين الله ودفاع عن حياض الوطن وكانوا قلعـــة حصينة ترفرف عليها راية الاسلام وانه من تقرير الحقيقة ان نذكر هنا ان دارفور كانت دائما أول من يثور على الظلم والطغيان وآخر من يستسلم لجيوش الفاتحين ويصدق ذلك فى جميع العهود دون استثناء ولكن لابد لهـذا من سبب ـ كل ذلك كان بفضل القيادة الرشيدة والترجيه المخلص الذى كان يبذله علماء دارفور من خريجى الازهر وانتشار الوعى الدينى بين طبقات العامة ٠

محجوب زيادة
الاسلام فى السودان صفحـــة (٨٧)

كان بعض السودانيين يذهبون الى الازهر ثم يعودون بعد تحصيل العلم ونلاحظ ان الأثر المصرى فى نشر الثقافة الاسلامية فى السودان قد يتميز بعض الشيء عن غيره بأنه ذو طابع علمى فى معظمه ، أعنى ان الذين تأثروا بالثقافة المصرية فى ذلك العهد اتجهوا الى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم ٠

د٠ عبد المجيد عابدين
تاريخ الثقافة العربية فى السودان صفحة (٥٩)

ولا تقفل فى مجال الحديث عن الحياة الفكرية فى هذا العصر ان نذكر متعلمى الأزهر وخريجيه من السودانيين ومنهم من حصل على أعظم الاجازات العلمية ٠

عز الدين الأمين
تراث الشعر السودانى
صفحة (٤٤)

كذلك تطلع الفونج (حكام سنار) الى الازهر فكان الملك بادى الأول (١٦١١ ــ ١٦١٦ م) على صلة بعلماء الازهر وكان يرسل اليهم الهدايا والصلات وكان السودانيون يلتحقون بالازهر ثم يعودون الى بلادهم يعلمون اللغة والتوحيد والفقه حتى لقد أصبحت مملكة سنار المركز العلمى لشرقى السودان وغربه ٠

د٠ حسن ابراهيم حسن
انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية صفحة (٢٢٩)

ان التعليم الدينى فى السودان وهذه الكلية قمته فى حصيلته وتفصيله وفى نشأته وادراكه فيض من الازهر فالسودانيون أخذوا يفدون على الازهر يجددون العهد بمصادر معارفهم ويلتحقون بمركز الثقافة الاسلامية الشامخ الذى انتهت اليه علياؤها ليعودوا يعلمون العقائد والفقه والتفسير والحديث والعلوم العربية ــ فمنهم من كان المشاعل بعد ان عادوا من شمال الوادى عملا بقوله تعالى : لولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ٠

الآية ١٢٢ من سورة التوبة ٠٠٠٠٠

ومنهم من أثر البقاء فى القاهرة ليقوم بالتدريس والتعليم بعد ان تعلم ...

ان كلية الدراسات العربية والاسلامية لن تنسى الفضل الذى اوليتموها حين تفضلتم بالموافقة على اعارة صفوة مختارة من أساتذة جامعة الازهر ومعاهده وحين تفضلتم فوافقتم على منح طالباتها ست منح للدراسات العليا بكلية البنات الاسلامية وهى ترجو دوام هذه الرعاية الكريمة ومواصلة المدد فى اعارة الجهابذة من علماء الأزهر ومنح نوابغ الخريجين فيها منحا للدراسات العليا بجامعة الأزهر وستكون لزيارتكم هذه أعظم الأثر فى تقوية الروابط الثقافية الازلية الابدية ان شاء الله .

واذا كان النيل المبارك قد دأب يحمل فى مسيرته من الجنوب الخصيب والرخاء والحياة الى الشمال فقد دأب الشمال ممثلا بصفة خاصة فى الازهر الشريف ان يجزى الجنوب ما يعادل الحياة من المعارف الانسانية السامية والثقافية الاسلامية العالية .

لقد أشرق على السودانيين فى مطلع هذا القرن وجه الامام الشيخ محمد عبده وقد أخذ الاستعمار يحكم عليهم القيود المرهقة فأوحى اليهم بالعزة الاسلامية وكانت زيارته شرارة الحركات التحريرية فيما بعد فلتكن زيارتك الكريمة بعثا لروح الاصلاح الدينى الذى عمل له وامتاز به الامام محمد عبده ودعما لنهضة التعليم الدينى فى السودان وعونا على احياء التراث الاسلامى والحفاظ على القيم الاسلامية .

من كلمة الأستاذ محمد المبارك عبد الله .

شيخ علماء السودان ومدير كلية الدراسات العربية والاسلامية ـ تحية للامام الأكبر محمد الفحام شيخ الأزهر الأسبق عند زيارته للسودان .

خاتمــة

فى مستهل القرن السادس عشر للميلاد وعلى وجه التحـــديد عام ١٥٠٤ قامت فى السودان دولة سنار وكان أصحابهـــا يطلقون عليهـــا السلطنة الزرقاء (١) كذلك سميت سلطنة الفونج الى الاسرة الحاكمة ٠

قامت دولة سنار بفضل تحالف القبـــائل العربيـــة النازحة التى استوطنت السودان مع أسرة ســودانية حاكمـــة كانت تقطن فى الجزء الجنوبى الشرقى على حدود أثيوبيا ويزعم شيوخ تلك الاسر انهم ينتمون أصلا الى بنى أمية تركوا ديارهم بعد سقوط دولتهم وقيام دولة بنى العباس واختلف المؤرخون فى أصلهم هذا ولكن السائد صحة زعمهم بأنهم يرجعون الى بنى أمية لقد قضى ذلك التحالف على الدولة المسيحية فى الســـودان وأصبحت البلاد جميعها تدين بدين الدولة الجديدة وهـــو الاســـلام والسودان الجنوبى بالطبع لا يدخل فى هذا النطاق اذ لم يستكشف الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى العهد التركى على السودان ٠

لقد قامت دولة سنار الاسلامية قبل أقل من خمسة قرون وما يقرب من ألف عام من قيام الدولة ـ الاسلامية فى مصر وهـــذا تاريخ حديث بالنسبة لدخول الاسلام فى مصر أو أى بلد عربى آخر ولذلك يمكننا القول ان بلدنا حديث عهد بالاسلام ٠

---

(١) الزرقاء يقصد بها السوداء ٠

ظهرت الدولة السودانية الاسلامية الى حيز الوجـــود بعد ما حلت بالعالم الاسلامى كوارث عدة على رأسها سقوط بغداد فى المشرق وقرطبة والاندلس فى المغرب وبعـــد ان تمزق الى دويلات ثم جثم الحكم التركى العثمانى على صدره وسعى سلاطين آل عثمان ليتولوا زعامة الأمة الاسلامية ويروى ان السلطان سليم القائد التركى بعد ان تم له فتح مصر قدم الى سواكن وهم يغزو سنار (١) خاطب ملكها عمارة دونقس يدعوه الى الطاعة فرد عليه بما مفاده (أنى لا أعلم ما الذى يحملك على حربى وامتلاك بلادى فان كان لأجل تأييد الاسلام فانى وأهل مملكتى عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وان كان لغرض مادى فاعلم أن أكثر مملكتى عرب بادية وقد هاجروا الى هذه البلاد فى طلب الرزق ولا شىء عندهم تجمع منه جزية سنوية) وأرسل له مع الكتاب انساب قبائل العرب الذين فى مملكته جمعه له الامام السمر قندى أحد علماء سنار ويقال ان السلطـان سليم عدل عن غزو سنار بعد ان وصله الكتاب والانساب وأخذها معه ولا تزال فى خزانة اسطنبول .

استمرت دولة سنار أكثر من ثلاثة قرون شهدت فيهـــا وعاصرت احداثا جساما حيث انتقل مركز الثقل الحضـــارى الى أوروبا بعد عصر النهضة وما صاحبه من تطور كبير فى ميزان السياسة والثقافة والفـكر وتسلمت أوروبا مقود السياسة الدولية بعد ان ظل قرونا عند المسلمين .

ان تاريخ الثقافة العربية الاسلامية فى بلادنا جزء لا يتجزأ من تاريخها فى البلاد العربية الاسلامية الاخرى ولعل من ابرز ظواهر الحضارة العربية انها لم تنقطع بل ظلت تواصل سيرها على مدى عدة قرون فى ثلاث قارات أسيا أفريقيا أوروبا وفى تبادل ثقافى اسلامى متصـــل فكانت الكتب تنسخ وتنتقل من المشرق الى المغرب والى السودان فى أفريقيا وكان العلماء والفقهاء يتنقلون من بلد عربى واسلامى لآخر يؤدون دورهم ورثة الانبياء وينشرون العلم فى كل بلد رحلوا اليها وكان المسلمون وهم مدفعون بتعاليم القرآن وحديث الرسول صلعم يهاجرون من بلادهم طلبا للعلم كان الدرب مطروحا وممهدا دون حواجز سياسية أو دينية أو لغوية من فارس والعراق الى الشام ومصر والاندلس وأصبحت للثقافة الاسلامية وللغة العربية مكانتها وسيادتها وأضحى الاسلام دين العقل ووسيلة لتوحيد تلك الشـعوب

(١) نعوم شقير ــ تاريخ وجغرافية السودان جبعة بيروت ص ٣٨٩ .

وائتلافها وأساس حضارة تقدمية نهل منها الغرب وتفتحت عيونه ومداركة عليها ٠

ازدهرت الثقافة الاسلامية فى السودان بفضل هؤلائك العلماء الوافدين اليه من الازهر أساسا والبلاد العربية الاخرى وبفضل العلماء السودانيين الذين تخرجوا فى الأزهر وأتباعهم وتلامذتهم الذين أخذوا العلم منهم وأصبح السودان موئلا لكثير من العلماء والمواطنين العرب الذين تركوا ديارهم فى المشرق لتعسف الحكام وقهرهم ومن المغرب خاصة تحت سيطرة المسحيين الكاثوليك على الاندلس وتنكيلهم بالمسلمين واجبارهم على اعتناق المسيحية وطرد ما يقرب من نصف المليون الذين أثروا ان يظلوا على دينهم وهاجر كثير من هؤلاء اولئك الى البلاد العربية ومنها السودان ولقوا من المعاملة الكريمة وحسن الوفادة مما جعلهم يتخذونهم مستقرا لهم ٠

لقد شيدت فى البلاد مساجد كبرى وخلاوى وزوايا فى الشمال وأرض الجزيرة والنيل الابيض يؤمها الطلاب وقد تفرغ أولئك الرواد من العلماء والفقهاء وانقطعوا لتعليم الناس وارشادهم وكانوا قد عرفوا علم الكلام والمنطق وأصول الفقه على مذهب مالك وبعضهم على مذهبى مالك والشافعى كما وقفوا على الكتب المتداولة لكبار العلماء الاسلاميين فى زمانهم ومن سبقوهم كان الطالب يبدأ بحفظ القرآن أولا حفظا جيدا مجودا ثم يتجه لدراسة علوم الفقه على مذهب مالك وعلم التوحيد واللغة العربية واللغة العربية وأدبها بالاضافة الى العلوم الاخرى كالرياضيات والفلك والتاريخ الاسلامى ومنهم من لم يكتف بذلك بل يذهب الى مصر لينهل من ازهرها الشريف ثم يعود عالما مرموقا ٠

وكان العلماء يؤلفون الكتب فى العقائد والشروح والحواشى وكانوا ينسخون الكتب الكبرى ويوزعونها لتعم الفائدة وقد لاحظ الرحالة السويسرى بيركهاردت الذى زار السودان عام ١٨١٣ أنهم ينسخون الكتب فى خط انيق لا يقل روعة عن المخطوطات التى رآها فى القاهرة غير ان كتبهم التى ألفوها أو نسخوها أو احتفظوا بها فى خزائنهم فقدت أما فى حملة الدفتر دار الدموية المسعورة على طول البلاد وعرضها انتقاما لمقتل اسماعيل باشا قائد الجيش التركى الذى فتح البلاد عام ١٨٢٢ م وقمعا للثورة التى أشعلت البلاد ضد الحكم التركى الجديد حيث ترك الناس ديارهم وتفرقوا أبدى سبأ أو بسبب تآكل الكتب وتلفها حتى أتت الثورة المهدية (١٨٨٥ ـ ١٨٩٨) فقضت على البقية الباقية من الكتب واحرقت بأمر الامام المهدى ٠

وحرق الكتب هذا ليس جديدا فى التاريخ الاسلامى فقد أحــرق المالكية فى اشبيلية والأندلس مكتبة ابن حزم الأندلسى فى القرن العاشر للميلاد بل حتى احياء علوم الدين للغزالى أحرق فى قرطبة .

لقد ظهر علماء سودانيون علا صيتهم فى الداخـل والخـارج وقصدهم طلاب العلم من شرق أفريقيا وغربها ومنهم من ذهب الى غرب أفريقيا يعلم الناس هناك وأصبحت سنار مركزا رئيسيا للعلم فى أفريقيا وكانوا على اتصال مع وصفائهم فى الأزهر يجادلونهم ويعرضون عليهم بعض القضايا التى يختلفون عليها .

لقد حفلت البلاد بحركة علمية عظيمة بلغت أوجها فى القرن السابع عشر وكان الملوك والسـلاطين يغدقون على العلمـــاء ويجزلونهم العطـــاء ويستجيبون لكل مطـــالبهم وقامت تلك البيوتات الدينيـــة بنشر العلم والثقافة الاسلامية القائمة على الكتاب والسنة تحافظ عليها هذا ومازال كثير من تلك البيوتات الدينية تضطلع بذلك الدور الى يومنا هذا ثم شهدت بلادنا علاقة أوثق بمصر بعد أن خضعت البلاد لحكم محمــد على وأسرته وأصبح الطريق الى الازهر سهلا مطروقا وحل ببلادنا مصريون أزهريون منهم من حظى بالسفر الى أوروبا ضمن مبعوثى محمد على باشا الى هنـاك ودخل ما يسمى بالتعليم النظامى الذى كان يحمل طابعا حضاريا وثقافة جديدة على أسس ما كان يجرى فى أوروبا وسار ذلك التعليم جنبا الى جنب مع التعليم الدينى .

ثم قامت الثورة المهدية متأثرة بما كان يجرى فى العالم الاسلامى من ثورات ودعوة الى العودة الى منابع الاسلام الأولى ونظرة اجتهادية الى اقامة مجتمع اسلامى معاف وانخرط فى صفوفها كثير من العلماء ــ السودانيين الذين تخرجوا فى الازهر وشغلوا فيها مناصب كبرى كما أيدها وساندها الامامان جمال الدين الافغانى ــ ومحمد عبده وعطف عليها كثير من علماء الازهر وقتل فى سبيلها والدعوة لها أحـد علمـــاء الازهر الذى نفى الى الخرطوم بعد اشتراكه فى الثورة العرابية وهو العالم الازهرى أحمـــد العوام ولكن الثورة المهدية لم تسر الى غايتها التى من أجلها قامت ولقيت نحبها أمام الاخطبوط الاستعمارى البريطانى .

لقد أتى الحكم البريطانى على السودان بعد معركة كررى المعروفة فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ .

أتى يحمل معه ثقافتين متباينتين ثقافة هى نتاج الثورة الصـــناعية

الأوربية وأخذ يفرضها على الناس بطرق شتى فيها الترغيب وفيها الترهيب وثقافة شرقية دينية حملها الاساتذة المصريون على نحو ما ذكـــرنا وتعلق السودانيون فى بادىء الأمر بثقافتهم الاسلامية الموروثة ولكن شيئا فشيئا وأثر السيطرة الأوربية على الدول المستعمرة وفرض لغة الحاكم سيطرت الثقافة الأوربية على مصر والبلاد العربية وكانت مصر دائمـــا أبدا نافذة السودان للفكر والثقافة العالمية وخرجت المطابع تقذف كتبها ومؤلفاتهـــا وظهر فى مصر مثقفون درسوا فى الازهر أساسا يعجبون بالثقافة الأوربية الجديدة كطه حسين وأحمد الزيات وزكى مبارك والمنفلوطى والكثير غيرهم وكان هناك الكاتب الكبير عباس محمود العقاد وتأثر جيل من السودانيين بهم وساروا فى خطاهم مقلدين لا مجددين ٠ وأقبلوا على التهام الكتب الانجليزية والمترجمة من اللغات الأخرى ووجدوا بذلك موردا ثقافيا آخر غير ما ألفه آباؤهم ٠

ولعلنى انتهز هذه الفرصة لانقل لكم بالحرف الواحد بعضا من مقدمة الاستاذ محمد فريد أبى حديد عام ١٩٤٨ لديوان الشاعر السودانى محمد سعيد العباسى مما يوضح ثقافة السودان ولغته العربية الخالصـــة التى تلقاها عبر مجار محددة أولها وأساسها الأزهر الشريف ٠

يقول الأستاذ أبو حديد :

وكنت قد رأيت نخبة من فضلاء أدباء السودان وقرأت لهم وسمعت منهم وكنت فى كل مرة أزداد ايمانا أن الصور التى تلمع فى شعرهم تبعث عن فن أصيل ومن نبع فياض بل لقد ذهب بى الخاطر أحيانا الى آن ألمح فى شاعر السودان أديبا أبعد أصلا فى العروبة من سائر الأدباء ٠

لقد سمعت فى شعر السودان البدوى وفى أهازيجه الشعبية من صيغ الألفاظ ومن صور التعبير ما لا يتوفر الا لقوم لهم لسان عربى أصيل من أرومة بدوية عريقة ــ لقد سمعت فى السودان من شعراء الشـــعب قوما ينطقون لعامة الناس بما لا يدركه فى غير السودان الا المتأدب المتوفر على دراسة اللغة فهو ينشد للناس بلغة عامية متحدثا عن الشادن والاسد والرحال والمسارب وما أظن عامة شعب عربى آخر تدرك لهذه الالفاظ معنى من ذلك ذهب بى الخاطر أحيانا الى أن أهل السودان العربى انما ينطقون بلسان قديم ويغترفون العربية من أصل أصيل عبر البحر الأحمر ٠

ملاحق

الاجازات العلمية

الاجازة الاولى : (١)

منحها العالم السودانى الشيخ عبد الرحمن بن جابر الذى درس على الشيخ البنوفرى فى مصر لتلميذه الشيخ ابراهيم بن أم رابعة ٠

« ٠٠٠ أما بعد فان الأخ الفقيه الصالح المتأدب المتواضع الشيخ ابراهيم بن أم رابعة استحق السيادة والامامة عنـدى فجعلته قطبا فى مكانه ولسانا فى عصره وترجمانا فى أوانه ومربيـا للمريدين وقدوة للمسترشدين وملجأ للفقراء والمساكين مظهرا شمس المعارف بعد غروبها فاذنته فى كل ما حقق نقله وسمعه منى ان يغشيه ويعلمه الناس مخلصا وقد أذنت له باشهارها واشهار ما فيها وتشبييع ما أشرنا اليه ٠٠٠٠ تاريخ اثنين وثمانين وتسعمائة من الهجرة النبوية (٢) ٠

الاجازة الثانية : (٣)

أجازها الشيخ على الاجهورى شيخ الاســلام بمصر انذاك لطالبه الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم والد العالم السـودانى المعروف الشيخ خوجلى وقد جاء فى الاجازة ٠

« ٠٠٠ أما بعد فقد قرأ على الشاب الفاضـل والنحرير الكامـل الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم بن أبى ملاح الكبانى نسبا والبرى بلدا عقيدتى التى ألفتها فى أصول الدين والتصوف وشرحها قراءة جيدة نافعة ان شاء الله وحضر قراءتى فى مختصر العلامة الشيخ خليل فى فقه المالكية فى نحو نصف الكتاب المذكور قراءة بحث وتحقيق دلت على نباهته وفقهه

---

(١) و د ٠ ضيف الله ـ الطبقات ـ نسخة ابراهيم صديق ص ٣٣ ٠

(٢) الموافق ١٥٧٤م ٠

(٣) ود٠ ضيف الله ـ الطبقات ـ نسخة ابراهيم صديق ص ١١٦ ٠

بالكتاب المذكور وقد استخرت الله واجزته بما ذكر وبجميع ما يجوز لى روايته بشرطه سائلا منه ألاينساني من الدعاء بسعادة الدارين والدعاء بالرحمة لامواتنا وأموات المسلمين جعله الله من العلماء العاملين ووفقه لما يحبه ويرضاه فى القول والعمل وجعله من عباده المخلصين ونفع بعلومه المسلمين بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين » ـ كتب فى آخر ذى الحجة ختام سنة ثلاثين بعد الألف » (١) ٠

الاجازة الثالثة : (٢)

منحها الشيخ محمد عليش للشيخ أحمد البدوى وكان الشيخ عليش شيخا على المالكية بالازهر ٠ وقد ناصر الثورة العرابية حيث مات سجينا عام ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م : يقول الشيخ عليش ٠

« ٠٠٠ قد من الله على بصحبة الشيخ المبارك أحمد بن الشيخ محمد ابن الشيخ أحمد بن الشيخ عيسى السنارى المشهورين بالعلم والصلاح والبركة مدة مديدة وشاركنى فى كتب عديدة فى فنون من العلوم الشرعية وآلاتها ولما أراد العود الى وطنه التمس منى الاجازة ظنا منه انى من أهل ذلك وأنا متيقن انى لست ممن سلك تلك المسالك ولكن جبر خاطره ورجاء بركته حملانى على اجابته فقلت أجزت أخى المذكور بما سمعه منى وغيره مما اجازنى به أشياخى ضاعف الله لهم الأجور موصيا له بملازمة التقوى فانها للفلاح السبب الاقوى والا ينسانى من صالح دعواته فى جلواته وخلواته ضارعا للمولى الكريم ان يمن علينا بالخير العميم وان ينجينا من الفتن والأهوال وان يصلح لنا ولاخواننا الأحوال وأن يختم لنا بخاتمة السعادة وأن يجعلنا ممن لهم الحسنى وزيادة الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين » ٠

وقد حصل هذا العالم السودانى على اجازتين أخريين واحدة فى الفقه الشافعى من الشيخ ابراهيم الباجورى شيخ الازهر المتوفى عام ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ والاخرى من الشيخ أحمد حلبى الحنفى ٠

---

(١) الموافق ١٦٢٢ م ٠

(٢) عز الدين الامين ـ قرية كترانج وأثرها العلمى على السودان ص ٧٦ ٠

المراجـع

اللغة العربية

١ ـ الاسلام والحضارة ـ محمد كرد على

٢ ـ التمدن الاسلامى
الجزءين ـ الرابع والخامس ـ جرجى زيدان
مطابع مؤسسة دار الهلال
١٩٦٨

٣ ـ الازهر تاريخه وتطوره ـ وزارة الاوقاف المصرية
الاتحاد الاشتراكى العربى
دار مطابع الشعب

٤ ـ تاريخ الازهر فى ألف عام ـ سنيه قراعه
مكتب الصحافة الدولى
يوليو ١٩٦٨

٥ ـ مصر الاسلامية ـ محمد عبد الله عنان
مطبعة لجنة التأليف
١٩٦٩ ـ الناشر
مكتبة الخانجى القاهرة

٦ ـ مصر فى فجر الاسلام ـ سيده كاشف

٧ ـ تاريخ الجامع الازهر ـ محمد عبد الله عنان

٨ ـ كتاب الطبقات ـ للفقيه محمد ضيف الله
نسخة ابراهيم صديق
المكتبة الثقافية
بيروت

٩ ـ كتاب الطبقات جامعة الخرطوم ـ للفقيه محمد ضيف الله ـ تحقيق
وتقديم د ٠ يوسف فضل
دار الطباعة للتأليف والنشر
جامعة الخرطوم ١٩٧١

١٠ ـ تاريخ السلطنة السنارية ـ تقديم وتحقيق الشاطر بصيلى
والادارة المصرية ـ مخطوطة
أحمد بن على كاتب الشونة
وزارة الثقافة والارشاد
المصرى ـ ١٩٦١

١١ ـ جغرافية وتاريخ السودان ـ نعوم شقير
دار الثقافة ـ بيروت

١٢ ـ مشيخة العيدلاب ـ محمد محى الدين

١٣ ـ التربية فى السودان ـ د ٠ عبد العزيز عبد المجيد
ج (٢) و (٣) ـ المطبعة الاميرية
القاهرة ـ ١٩٤٩

١٤ ـ السودان فى قرن ـ د ٠ مكى شبيكه

١٥ ـ النداء فى دفع الافتراء ـ محمد عبد الرحيم

١٦ ـ السودان بين يدى ـ ابراهيم فوزى
غردون وكتشنر

١٧ ـ تاريخ السودان الحديث ـ ضرار صالح ضرار
١٩٦٤

١٨ ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ د ٠ شوقى الجمل
ج (٢) مكتبة الانجلو المصرية
١٩٦٩

١٩ ـ حركة الترجمة فى مصر فى ـ جاك تاجر
القرن التاسع عشر

٢٠ ـ مناهج الألباب المصرية فى مباهج الادارة العصرية ـ طبعة ثانية
١٣٣٠هـ /١٩١٢ م رفاعة رافع الطهطاوى ٠

٢١ ـ تطور القضاء فى السودان ـ حسين سيد أحمد المفتى

٢٢ ـ قرية كترانج وأثرها العلمى ـ عز الدين الامين
علي السودان ـ دار الطباعة
جامعة الخرطوم ـ ١٣٩٥/١٩٧٥ م

٢٣ ـ جهاد فى سبيل الله ـ اعداد عبد الله محمد أحمد
الخرطوم ١٩٦٥

٢٤ ـ شيخ الاسلام ـ ابراهيم عبد الرزاق
الفكى الامين الضرير
مكتب النشر ـ الخرطوم

٢٥ ـ نفثات اليراع ـ محمد عبد الرحيم

٢٦ ـ وقفات مع العباسى ـ عبد القادر الشيخ ادريس
دار الفكر السودانية ١٩٧٠ (أبو هالة)

٢٧ ـ تطور التعليم فى السودان ـ محمد عمر بشير
مترجم عن الانجليزية ـ دار الثقافة
بيروت ـ ١٩٧٠

٢٨ ـ تاريخ الثقافة العربية ـ د . عبد المجيد عابدين
فى السودان ـ دار الثقافة
بيروت ـ ١٩٦٧

٢٩ ـ أصول الشعر السودانى ـ عبد الهادى الصديق
المجلس القومى لرعاية الآداب
والفنون ـ الخرطوم

٣٠ ـ التصوف الاسلامى ـ د . زكى مبارك
ج (١) و (٢) ـ المكتبة العصرية
صيدا ـ بيروت

٣١ ـ الشعر الحديث فى السودان ـ د . محمد ابراهيم الشوش
معهد الدراسات العربية ـ
جامعة الدول العربية ١٩٦٢

٣٢ ـ تراث الشعر السودانى ـ عز الدين الامين
معهد البحوث والدراسات العربية
جامعة الدول العربية ١٩٦٩

٣٣ ـ الشعر السوداني في المعارك السياسية ـ محمد محمد علي
١٨٢١ ـ ١٩٢٤ ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ مطبعة النهضة
١٩٦٩ القاهرة

٣٤ ـ تاريخ الحركة الوطنية في السودان ـ محمد عمر بشير
الدار السودانية للكتب
١٩٧٨ ـ مترجم عن الانجليزية

٣٥ ـ نابغة الشرق ـ السيد جمال الدين الأفغاني ـ محمد سعيد
عبد المجيد دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (سعيد الأفغاني)
القاهرة ـ ١٩٦٧ م ـ ١٣٨٦ هـ

٣٦ ـ الامام محمد عبده ـ سلسلة اعلام الاسلام ـ عبد الحليم الجندي
دار المعارف

٣٧ ـ الاسلام في السودان ـ وزارة الشئون الدينية
مكتبة الثقافة الاسلامية والاوقاف ـ جمهورية السودان

٣٨ ـ الادارة البريطانية والحركة ـ د . جعفر محمد علي بخيت
الوطنية في السودان
مترجم عن الانجليزية
دار الثقافة ـ بيروت ـ ٧٢

٣٩ ـ تاريخ الشيخ محمد عبده ـ السيد محمد رشيد رضا

٤٠ ـ الرباط الثقافي بين مصر والسودان ـ د. ابراهيم الحاردلو
دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٧٧ .

٤١ ـ النفائس في أخبار وآثار ـ عبد الحميد أبو القاسم
شيخ الاسلام أبو القاسم أحمد هاشم
دار جامعة الخرطوم للنشر
مطبعة جامعة الخرطوم

٤٢ ـ مذكرات وذكريات ـ محمد المبارك عبد الله
مطبعة محمد علي صبيح ١٩٧٢
الجزء الاول

٤٣ ـ انتشار الاسلام فى ـ د ٠ حسن ابراهيم حسن
القارة الافريقية
مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣

٤٤ ـ الحركة الفكرية فى السودان ـ محمد أحمد محجوب

٤٥ ـ الطوائف الصوفية فى ـ د ٠ عبد القادر محمود
السودان ـ مطبعة مصر (سودان)
١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١

٤٦ ـ مع التعليم الدينى فى السودان ـ محمد المبارك عبد الله
الجزء الثالث ـ المجلس الاعلى .
للشئون الدينية والاوقاف
الخرطوم ـ رجب ١٤٠٠ هـ ـ يونيو ١٩٨٠

٤٧ ـ دراسات فى تاريخ السودان ج (١) ـ د ٠ يوسف فضل
دار التأليف والترجمة والنشر ـ
جامعة الخرطوم ـ ١٩٧٥

٤٨ ـ مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان فى
العصـور الوسطى ـ حققها وكتب حواشيها د٠ مصطفى محمـد
مسعد
مطبوعات جامعة القاهرة بالخرطوم
١٩٧٢

٤٩ ـ امتداد الاسلام والعروبة ـ د٠ مصطفى محمد مسعد
الى وادى النيل الاوسط ـ مستخرج من
مجلة الدراسات التاريخية ـ الجمعية المصرية العدد الثامن ١٩٥٩

٥٠ ـ أولاد جابر ـ د ٠ سرالختم عثمان

٥١ ـ العربية فى السودان ـ عبد الله عبد الرحمن
دار الكاتب اللبنانى
بيروت ١٩٦٧

٥٢ ـ الاسلام فى السودان ـ محجوب زياده
سلسلة اقرأ ـ

٥٣ ـ سعادة المستهدى بسيرة ـ تقديم وتحقيق
المهدى ـ للشيخ اسماعيل عبد القادر د ٠ محمد ابراهيم أبو سليم
الكردفانى

٥٤ ـ جمهرة الاولياء ج (١) و (٢) ـ السيد محمود أبو الفيض
مؤسسة الحلبى وشركاه
١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م

٥٥ ـ عصر سلاطين المماليك ـ محمود رزق سليم
ونتاجه العلمى والأدبى ـ المجلد
الثالث ـ المطبعة النموذجية
الحلمية الجديدة ١٩٤٩ ـ الناشر
مكتبة الآداب بالجماميز

٥٦ ـ ديوان توفيق صالح جبريل

٥٧ ـ الشعر القومى فى السودان ـ د ٠ عز الدين اسماعيل
دار العودة ـ بيروت

٥٨ ـ الدعوة الى الاسلام ـ ترجمه الى العربية وعلق عليه
سير توماس ارنولد د٠ حسن ابراهيم حسن
مكتبة النهضة المصرية و د٠ عبد المجيد عابدين
١٩٧٠ واسماعيل النحراوى

٥٩ ـ البيان ـ مجلة ثقافية
العدد العاشر ١٩٧٨
وزارة الشئون الدينية
والاوقاف السودانية
عدد خاص عن القرآن الكريم

٦٠ ـ صانعو التاريخ العربى ـ ترجمة الدكتور
فيليب حتى ـ دار الثقافة ـ أنيس فريحه
بيروت ١٩٦٩

٦١ ـ مملكة الفرنج الاسلامية ـ د ٠ مكى شبيكه
معهد الدراسات العربية
جامعة الدول العربية
١٩٦٣/ ١٩٦٤

٦٢ ـ تاريخ اللغة العربية فى مصر ـ د. أحمد مختار عمر
الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م

٦٣ ـ السلالات العربية فى السودان ـ التيجانى عامر
دار الفكر ـ الدار السودانية

٦٤ ـ ديوان العباسى
مطبعة الكيلانى الصغير ـ مصر ـ للشاعر محمد سعيد العباسى
١٩٤٨

اللغة الانجليزية :

— Islam in the Sudan — J. S. Trimingham Frank Cass dcolia,. 1965.

— The Influence of J. S. Trimingham Islam Upon Africa. (Longman) — 1968.

— A History of Islam :
In West Africa — J. S. Trimingham (Oxford Paper lacks).
Oxford University Press 1970.

— The Arabs in History ; Arrow Books — — Prof Beranard Lewis Anchor Press 1954.

— Modern Egypt — Earl of Cromer Vol. 11.
McMillan and Colta, 1908.

— A History of The Arabs. H.A. MacMichael in The Sudan, Vol. 1 and 11.
Frank Cass and Co Ltd.

— A Biographical Dictionary — of The Sudan, Richard Hill F. Cass and Colia — 1967.

— Travels in Nubia - John Lewis Burckhardt London - 1819.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٨٨٠٣

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٥١١ ـ ٢